الدكتور
عبد المعطي محمد بيومي

الماركسية .. في مواجهة الدين

حقائق ووثائق

دار الأنصار
٨١ ش البستان ناصية شارع الجمهورية
عابدين ت ٩٣١٥٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

من القرآن الكريم

قال تعالى : —

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ »

« سورة الأنبياء الآية ١٨ »

وقال سبحانه :

« إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »

« سورة الإسراء الآية ٨١ »

مقدمة

بقلم فضيلة الشيخ الدكتور عبد المنعم النمر
وكيل الوزارة لشئون المعاهد الأزهرية

حين هجم الغرب علينا بجيوشه حمل معه أفكاره الصالحة وغير الصالحة ولم يكن متحمسا لنشر مسيحيته بمقدار تحمسه لتحقيق أطماعه الاقتصادية ونفوذه السياسى ، وقد كان ضعف قوتنا وتشتت شملنا ، وضعف الروح الدينية فينا مما أغراه وسهل له السيطرة علينـــا مدة من الزمن طالت أو قصرت .

وبالرغم من أن المبشرين للمسيحية ساروا فى ركابه وتحت ظلاله للتبشير بين المسلمين وإثارة الشك فى دينهم إلا أننا لم نحس الخطر علينا وعلى ديننا بالقدر الذى احسسناه حين بدأت الشيوعية ــ بمبادئها البراقة المخالفة فى أصولها ونظامها؛ لديننا وتقاليدنا وتراثنا ــ تتسرب إلينا ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية ، ولاسيما أيضاً بالنسبة لمصر حين ارتمينا فى أحضانها وعادينا الغرب وفتحنا لها كل الأبواب .

كانت محاولات المبشرين بتعضيد المستعمرين تقوم على الناحية الدينية البحت . وإن كانوا قد عززوا أفكارهم الدينية بكثير من الإغراءات لكن المسلم ــ حتى الذى طحنه الفقر وعذبته الحاجة ــ كان يجد رد الفعل طبيعيا فيه ضد أغراض هؤلاء .

لكن الشيوعية سلكت من أول يوم أو قامت دعوتها من أول يوم على مخاطبة البطون واستغلال حالة الفقراء والكادحين والمظلومين ، وقدمت

لهم نظاما اقتصادياً وسياسياً يشفى غيظهم من الأغنياء والمتسلطين، واشتعلت فيهم روح الانتقام، وموهت لهم بأنها ستجعلهم هم والأغنياء ســـواء، بل وعدتهم بأنهم سوف يكونون هم المتخمين الذين يدوسون بأقدامهم كل من عداهم.

وكان للشيوعية أصول لهذه المبادىء والأفكار تقوم عليها وهى أصول تخالف الدين أو تقضى عليـــه، ولكن دعاتها كانوا من البراعة بحيث لايصدمون الجماهير أولا بهذه الأصول بل يقدمون لهم مايثير نفوسهم، ومايحقق لهم أطماعهم ويشفى غيظهم، فى الوقت الذى يحرصون فيه على إبعاد مايمس الدين فى دعوتهم، فإذا جابهم عارف بأصولهم قالوا .. لا .. نحن يهمنا الإنصاف، رفع المستوى، عدم التحكم فيكم ..

أما الدين فنحن لانمسه وأنتم أحرار فى دينكم ولكن الذى يهم هو هذا الجانب الذى نريد به انصافكم ورفع مستواكم ... الخ

ودخل هذا التمويه على الكثيرين، حتى اتبعوهم وعاونوهم وفى الوقت الذى شعر فيه دعاة الشيوعية بالاطمئنان نحو هؤلاء خطو الخطوة النهائية وتحدثوا عن الدين، وهاجموه وصوروه بأنه يساعد الظالمين على ظلمهم، وأنه وأنه .. الخ.

ومع ذلك. فإنهم لايتمسكون بضرورة انسلاخ صيدهم عن دينه، وعن صلاته وصيامه ..

وكانوا فى ذلك كله يستغلون فى الإنسان الذى أمامهم سخطه ونقمته ويستغلون حاجته وفاقته ليبذرو له الحب وهو يلتقط.

وما أكثر الساخطين والمحتاجين وما أكثر البلهاء الغافلين. وعن هذا الطريق تحبو فكرتهم وتدخل إلى النفوس.

وقد استغلوا الفراغ الدينى فى الفرد والمجتمع، واستغلوا الكثير من تصرفات المسئولين المسيئة بل الظالمة ، استغلوا عدم وجود حكم إسلامى عادل يضع كل شيء فى موضعه الصحيح ويقضى على المتناقضات والمفارقات المثيرة فى المجتمع .

استغلوا هذا كله لنشر مبادئهم مستعملين فى ذلك كل أساليب التمويه والإغراءات المالية وغيرها ، وتساندهم قوى دولية دموبة على نشر الشيوعية كمقدمة حتمية لبسط نفوذها وسيطرتها .

ولذلك لم يكن عجبا أن يستيقظ النوام ويهب الغيارى على دينهم ووطنهم لينبهوا أمتهم إلى أفظع خطر يكاد يدهمهم ويقضى عليهم وعلى دينهم واستقلالهم وتاريخهم .

ولما كانت الشيوعية تقوم أساسا على المبدأ المادى الذى ازدهر فى الغرب بعد الثورة الفرنسية، وتنكر تبعاً لذلك وجود الإله والرسل وكل القيم الروحية ، والتعاليم الالهية التى جاء بها الرسل . وتقيم على هذا الأساس المادى مبادىء تقضى على كل مافى مجتمعنا من حب وتعاون، وتهدم بنيانا الدينى والتاريخى من أساسه كان على الذين يتصدون للشيوعية، ويقفون فى وجه زحفها أن يوجهوا كل قذائفهم إلى أصلها ، وأن يعملوا على تعريته للمؤمنين ، وأن يقدموا الدليل تلو الدليل على مافى هذه الصورة من زيف وخداع ، ومافيها من خطر على الدين وعلى أسلوب الحياة الانسانية .

وكان من حسن حظ الذين وقفوا فى وجه الشيوعيه فى الشرق أن وجدوا دراسات كثيرة من مفكرين عمالقة فى الغرب والشرق تناولوا نظرية الشيوعية بالنقد والتحليل وبينوا كثيراً من أخطاء ماركس وزملائه وتلامذته ،

وكان الزمن عاملا مساعداً لهم فى كشف ماركس ونظريته .

كما كان قيام دول شيوعية عمدت إلى تطبيق نظريتها ففشلت، واضطرت أمام طبيعة الحياة أن تتخطاها إلى غيرها ، وأن تتنكرلها ، بل وتأخذ من النظريات المخالفة وتحاول الاقتراب منها .

فكان الواقع المهلهل للدول الشيوعية . وما جره الحكم الشيوعى من ويلات على الشعوب الواقعة تحت وطأته .

كان ذلك كله عاملا مساعداً للكتاب الذين اخذوا علي عاتقهم نقد هذه النظرية وبيان سوآتها .

وقد ظهرت كتب كثيرة تعالج هذه الناحية فى الغرب وفى الشرق .

ونحن الآن أمام جهد علمى مدروس يقدمه الدكتور عبد المعطى محمد بيومى المدرس فى كلية أصول الدين بجامعة الأزهر معتمدا فيه على الحقائق والوثائق ليكشف فيه لتلامذته وللقارئ العربى موقف الماركسية العدائى من الدين أى دين ولاسيما الاسلام ، ويقيم فيه الميزان لهذا الزعم الذى أطلقه بعض الناس من إمكان الجمع بين الماركسية والإسلام ، وإمكان أن يكون الإنسان مسلماً وماركسيا فى آن واحد .. وهو زعم لاتقره الماركسية كما لايقره الإسلام ، ولكنها الغفلة أو سياسة المراحل ، وأسلوب الخداع والتضليل للجماهير يستعملونه لحاجة فى نفوسهم أما نحن فنرفضه ونحذر الناس من مجرد الاستماع إليه ، نرفضه لاللهوى والشهوة ، ولكن استنادا إلى البدهيات . والحقائق العلمية الصارخة . مماستراه أمامك فى هذا الكتاب ، فإذا كان من غير الممكن أن تقول « الدائرة المربعة

ويصدقك أحد فإنه من غير الممكن كذلك أن تقول « المسلم الماركسي » وتجد من يصدقك اللهم إلا الأغبياء والجهلاء والمرجفون بالأباطيل .

وأتركك بعد ذلك للكتاب ، وأنا واثق أنك ستجد فيه مايشبعك ويرضيك بفضل الله ؟

وهو الموفق لكل خير ، والمعين عليه .

دكتور عبد المنعم النمر

بين يدى هذا الكتاب

عندما يكون هناك فراغ فكرى فى أمة ما ، فإن هذه الأمة تكون نهبا للتيارات الوافدة عليها من هنا وهناك تريد ملء هذا الفراغ على حساب عقائد الأمة الأصيلة التى يقوم عليها تراثها الحضارى .

والأمة الاسلامية - رغم بوادر النهضة التى بدأت تخطو إليها - تعيش حالة من الفراغ الفكرى سببه الجهل بحقائق الاسلام ومبادئه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، مما مكن لكثير من الفلسفات والمذاهب الفكرية والاجتماعية والاقتصادية الهدامة أن تعشش فى عقول بعض المسلمين وتفسد عليهم حياتهم ، وهم لايشعرون .

ومن أبرز هذه الفلسفات التى وجدت لها مكانا فى الأمة الإسلامية الفلسفة الماركسيه أو كما تسمى« الاشتراكية العلمية »إذ كانت ذات أثر خطير جداً على سير الحياة فى بعض المجتمعات الاسلامية التى غزتها بالفكر أحياناً أو بالقوة الماديه أحيانا أخرى وذلك عن طريق بعض الانقلابات العسكرية التى أطاحت بالنظم القديمة واحدثت تحولات جذرية فى مجتمعاتها إلى الشيوعية بصورة أو بأخرى .

لكن الاسلام ظل فى صراع مع الماركسية ، رغم هذه التحولات والقوة التى تساندها .

ولست هنا فى معرض التأريخ لهذا الصراع ، لكن الذى نريد تسجيله أن الحرية التى أتيحت للشعب المصرى بعد تصفية مراكز القوى أعطت هذا الصراع صورة أخرى : صورة المناقشة والحوار وتبادل الرأى مما أتاح

للفكر الاسلامى أن ينازل الماركسية ويدفع معتقداتها بالرأى الواضح والحجة الدامغة .

ولقد رأيت واجبا علىّ أن أنهض بقدر ما أستطيع المشاركة فى الواجب الذى يفرضه الدفاع عن المعتقد والوطن . . عن الإسلام والوطن الإسلامى العام والوقوف على ثغوره التى يستهدفها الماركسيون .

لذلك كتبت هذا البحث آملا أن يكون مشاركة نافعة فى كشف زيف الماركسية وادعائها المنهج العلمى فى موقفها من الدين عامة ومن الاسلام بوجه خاص .

على أن هذا البحث ـ كما يظهر من عنوانه :ـ

ـ ليس شرحا للدين فى كل تعليمه ومبادئه .

ـ وليس شرحا للماركسية فى كل أبعادها .

ـ وليس مقارنة بينهما فى شتى المجالات .

بل مهمته "الكشف عن وجوه التناقض والتهافت فى موقف الماركسية من الدين عامة ومن الاسلام خاصة ، وسقوطها فى محاولة هدم الدين سواء فى مجال الفكر أو فى مجال الواقع والتطبيق العملى .

ولقد كان اعتقادى أننا إذا نجحنا فى بيان سقوط الماركسية فى مواجهة الدين وعجزها عن هدمه فإننا نكون قد نجحنا فى بيان وجه من وجوه بطلان هذه البدعة الماركسية وهى مهمة ينتدب لها كل مسلم يتعاطى الفكر فى عالمنا المعاصر .

وبالنسبة لى وعلى الوجه الذى اقدمه فى هذا البحث فقد كان شعورى أن هذه المهمة وإن كانت ضرورية فإنها لم تكن صعبة .

ـ فهى ضرورية لأن تبجح الماركسين فى العالم الاسلامى فاق كل حد ،

فهم لم يتركوا وجها من وجوه النشاط والدعوة إلا مارسوه سواء بالتآمر أو بالتلبيس بين الحق والباطل مما ترتب عليه تداول الماركسية فعلا فى البلاد الاسلامية وساعدهم على ذلك : —

— الفراغ الفكرى الذى أشرنا إليه والذى كان للاستعمار الدور الأكبر فى إيجاده وتوسيع نطاقه فى أمتنا .

— ثم إن كثيراً من الذين كتبوا عن الماركسية لم ينطلقوا فى مناقشتها من منطلق عقلى فلسفى ليحاربوها بنفس السلاح الذى تحاول أن تتسلح به بل كان معظمهم ينطلق من العاطفة المتحمسة للإسلام وكانت كتابات بعضهم ضد الماركسية تعتبر دعاية لها وتحريضاً على اعتناقها إذ كان هذا البعض يورد الفكرة الماركسية ولا يواجهها بنفس القوة مما كان يترتب عليه أن تظل الشبهة عالقة فى الذهن .

ولذلك حاولت جهدى أن أستعمل منطق العقل والعلم فى كشف تناقض الفكرة الماركسية ، ثم أستأنس بعد ذلك بالدليل الإسلامى والآية القرآنية ليزداد المؤمنون إيمانا ويعلم المترددن والملحدون أن الاسلام قدم الحق فى قضايا الإنسان والحياة .

— وهى مهمة سهلة فى نفس الوقت ، لأن الماركسية ، وإن تمكن قد ادعت المنهج العلمى وظهرت بمظهر الفلسفة العقلية فقد كان بنيانها — خاصة فى موقفها من الدين — هشا لا يثبت أمام المناقشة العلمية الموضوعية .

ويرى القارىء فى الصفحات القادمة أنى بدأت بعد هذه المقدمة بتركيز الفكرة الماركسية عن الدين مستشهداً بالنصوص الماركسية ذاتها فى أسس ثلاثة : —

١ — القول بأزلية المادة وما ترتب عليه من إنكار للألوهية .

ـ الزعم بأن الدين مخترع أو إنكار المصدر الالهى للدين .

ـ الزعم بأن الدين أفيون الشعوب .

ومن ثم عقدت لكل أساس من هذه الأسس فصلا خاصاً لمناقشته بمنهج عقلى علمى بحت مشيراً بعد ذلك إلى الفكرة الاسلامية ودليلها فى هذا الصدد .

وبعد هذه الفصول الثلاثة كان لابد من الوقوف أمام العقيدة الجديدة التى يحاول الماركسيون إيجادها فى الأمة الإسلامية على أساس الجمع بين الماركسية والإسلام فحاولت أن أثبت من نصوص الماركسية ونصوص الاسلام فى كل المستويات أنه لايمكن الجمع بين هذين المتناقضين لافى مجال العقيدة ولا فى مجالات الفكر أو المهج أو الأخلاق والسلوك .

ثم أيدت استحالة الجمع بين الماركسية والاسلام فى التطبيق العملى من واقع المجتمعات الماركسية ذاتها فى الاتحاد السوفيتى ودول أوربا الشرقية والصين وعداء الماركسية الصريح للإسلام واضطهادها الدموى للمسلمين فى هذه البلاد .

ولقد كان من الطبيعى أن نقف بعد هذا أمام مستقبل المواجهة بين الماركسية والاسلام لمن الغلبة فى النهاية وفى أطار ذلك نجيب على سؤال إذا كانت الماركسية على هذه الدرجة من التناقض فلماذ توجد فى الأمة الإسلامية ولذلك بينت الأسباب الكامنة وراء انتشارها .

ثم اقتضى المقام بعد ذلك أن تبين الآثار الضارة التى يمكن أن تنجم عن انتشار المادية كلها فى العالم الاسلامى .

وقد حاولت أثناء ذلك كله أن يكون الأسلوب سهلا ، والعبارة بسيطة، بعيدا بقدر الإمكان عن التعقيدات اللفظية التى تصاحب الابحاث الفلسفية

أحيانا . خاصة الفلسفة الماركسية ومصطلحاتها المصطنعة الغامضة .

ولئن كنت قد وفقت فى بحثى هذا فبفضل من الله والحمد له، وإن كنت قد قصرت فمن نفسى وأرجو أن أتدارك ما يمكن أن يكون قد فاتنى عند إعادة طبع هذا البحث إن شاء الله كما أرجو أن أتلقى ـ شاكرا ـ توجيهات إخوانى وأساتذتى وتلاميذى ، فيما يرونه حتى يؤدى البحث رسالته المرجوة فى كشف الماركسية وتهافتها فى مواجهة الدين وهى جزء من المسئولية الكبرى الملقاة على عاتقنا جميعا نحو الاسلام وأمة الاسلام .

وإننى إذ أشكر والدنا وأستاذنا الدكتور عبد المنعم النمر على قراءته الدقيقة لهذا الكتاب وتوجيهاته القيمة التى كان لها الفضل الكثير فى توضيح نقطة هنا وتقوية دليل هناك حتى خرج الكتاب بهذا الشكل يحمل لمسة من لمسات جهاده ضد الشيوعية. هذا الجهاد الذى شهده العالم الإسلامى على صفحات الصحف . وفى كتابه القيم « إسلام . لا شيوعية » مما كان له أثره البارز فى مضايقة الماركسيين .

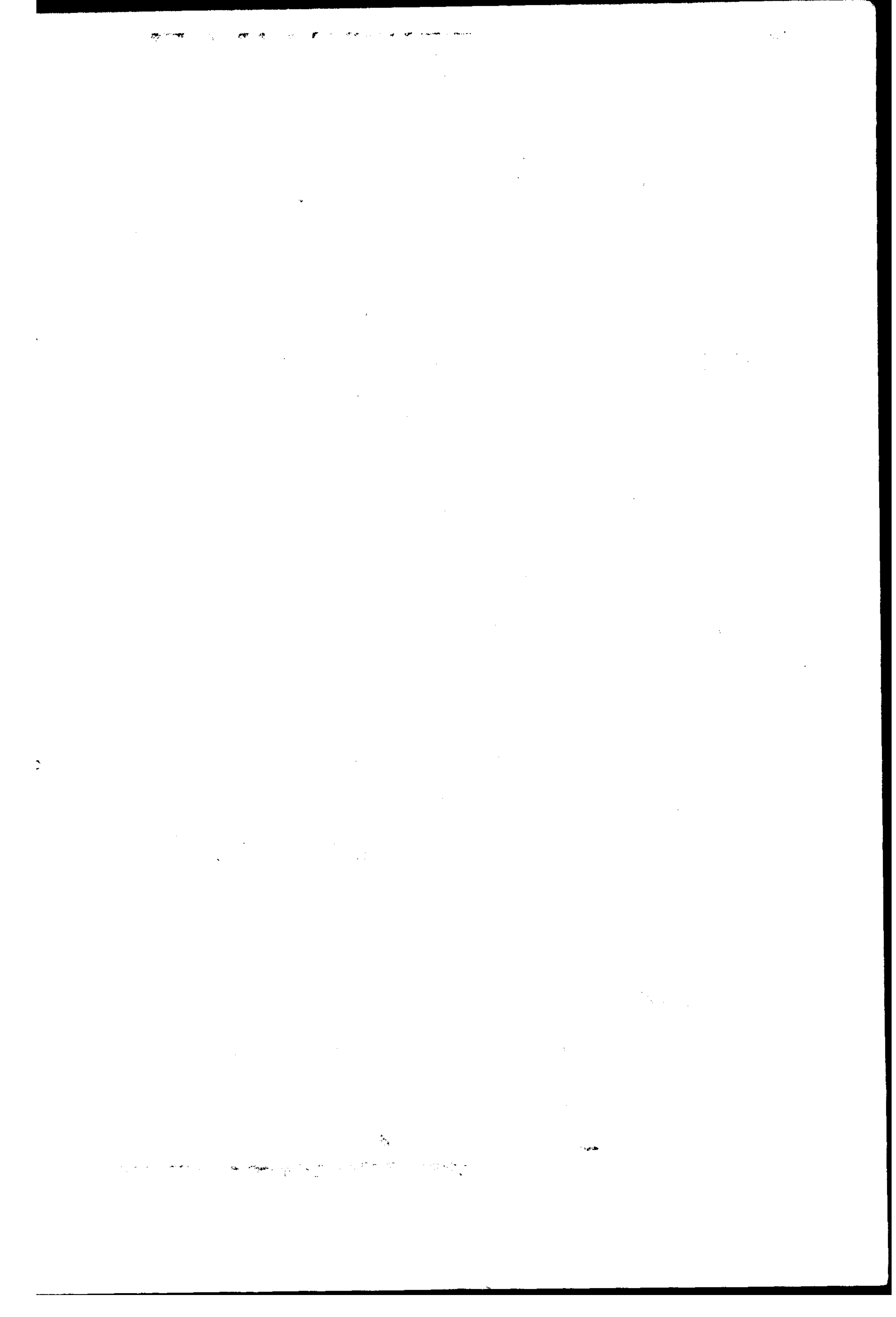
كما أشكر إخوانى الأعزاء الدكتور سيد حجاب والدكتور عبد الباسط بلبول والدكتور عبد الغفار عزيز المدرسين بجامعة الأزهر الدكتور جعفر شيخ إدريس الأستاذ بجامعة الرياض، الذين استمعوا فى صبر إلى فقرات طويلة فى مواضع مهمة من هذا البحث .

والله نسأل أن يتقبل منا جميعا وأن يجعـــل عملنا خالصا لوجهه إنه سميع مجيب .

عبد المعطى محمد بيومى

مدينة نصر فى ٢٤ من رجب سنة ١٣٩٧ هـ

١٠ من يوليو سنة ١٩٧٧ م



القسم الأول

الموقف الماركسى من الدين ، ونقده

- هل المادة أزلية ؟
- هل الدين مخترع ؟
- هل الدين أفيون ؟

القسم الأول

الموقف الماركسي من الدين أمام النقد

تمهيـــد :

من الغريب أن الماركسية تدعى دائما على لسان مفكرها الأول «كارل ماركس» والذين جاءوا بعده واتبعوا مذهبه، أنها مذهب علمى، يقوم على المنهج العلمى الدقيق، والتفكير المنطقى المحكم، ومع ذلك فهى أكثر المذاهب الفلسفية والاجتماعية تناقضا مع هذا المنهج وخروجاً عليه.

وفى هذا الباب سنحاول إثبات مغالطات الماركسية ونبين مخالفتها للمنهج العلمى فى قضية من أهم قضاياها وهى فكرتها عن الدين.

موقف الماركسية من الدين :

ترى الماركسية أن الدين خدعة مصطنعة ولدتها الظروف الاقتصادية والتاريخية التى نجمت من الصراعات الماديه وتحالف طبقة الاقطاع والرأسماليين، ضد العامة والفقراء ليشغل هؤلاء بإقامة الطقوس والشعائر وينصرفوا تحت وقع التخدير عن حقوقهم فى هذه الحياة، انتظارا للفردوس الأخروى ويصبروا على ظـــلم الأغنياء وجشعهم ويتفرغ الآخرون لإحراز الثروة وامتصاص دماء الفقراء.

وبناء على هذ فإن الدين — فى نظر الماركسية — من اختراع العقل وصنعه، وبقاء الدين وانتشاره مرهون بجهل الطبقات الفقيرة، وعدم وعيها بأبعاد المؤامرة التى حيكت ضدها، ولا سبيل إلى توعية هذه الطبقات

بحقوقها إلا بإزالة الدين الذى يخدرها عن طلب حقوقها ، ويعطلها عن إدراك مركزها فى الحياة .

كما ترى الماركسية أنه ليس هناك أساس عقلى يمكن أن يقوم عليه الدين لأن الدين- عندها ـ يعتمد فى أساسه على الإيمان بأشياء غيبية ليست موجودة وجوداً حقيقياً كالله والملائكة واليوم الآخر وغير ذلك من الغيبيات التى لاتدرك الحواس البشرية وجودها .

ذلك أن الوجود الحقيق — فى نظر الماركسية — إنما هو الوجود المادى المحسوس ومالاتدركه الحواس فوجوده محال .

والمادة عند الماركسية أزلية وتطور العالم إنما يتم تبعاً لقوانين حركة المادة فليس العالم محتاجا فى تطوره إلى عقل كلى لأن قوانين التطور كامنة فى المادة ذاتها وبمقتضى هذه القوانين تتشكل الأشياء من صورة إلى صورة ، حتى أن الفكر صورة من صور المادة كبخار الماء صورة من صور الماء وأن ردوه فعل العالم الخارجى على الانسان تنعكس على مخه فى صورة أفكار وميول(١) .

يقول ماركس فى « المانيفستو » : ـ

« إن الدستور والأخلاق والدين كلها خدعة البورجوازية وهى تتستر وراءها من أجل مطامعها » .

كما يقول قولته الشهيرة :ـ

« الدين أفيون الشعوب » .

---

(١) انجلز . فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ص ٥٠ ترجمة جورج استور طبعة دار الفكر الحديث بدمشق انظر محمد عمارة . المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد . ص ٤٧ ط دار المعارف بمصر .

ويشرح ذلك « لينين » فى خطابه الذى ألقاه فى المؤتمر الثالث لمنظمة الشباب الشيوعى فى أكتوبر سنة ١٩٢٠ . فيقول :-

« إننا لانؤمن بالاله » ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والأقطاعيين والبورجوازيين لايخاطبوننا باسم الاله إلا استغلالا ومحافظة على مصالحهم .

إننا ننكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التى صدرت عن طاقات وراء الطبيعة غير الإنسان ، والتى لاتتفق مع أفكارناالطبيعية ونؤكد أن كل هذا مكر وخداع ، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال لصالح الاستعمار والإقطاع ، ونعلن أن كل هذا مكر وخداع ، وهو ستار على عقول الفلاحين والعمال لصالح الاستعمار والإقطاع ، ونعلن أن نظامنا لا يتبع إلا ثمرة النضال البروليتارى ، فمبدأ جميع نظمنا الأخلاقية هو : الحفاظ على الجهود الطبقية البروليتارية »(١) .

وفى البيان الشيوعى :-

« إن البروليتاريا ترى القانون والأخلاقيات والدين على أنها (ابتكارات برجوازية) عديدة تكمن فى مخبأ متخفيـــة شأن عديد المصالح البورجوزاية »(٢) .

---

(١) وحيد الدين خان . الاسلام يتحدى ص ٣٨ ط ١

(٢) المؤلفات الكاملة لماركس وانجلز . المجلد الأول ص ٤٢ أنظر : الأسس الأخلاقيه للماركسية . أوجين كامنكا . ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد . ص ١٨٦ منشورات دار الآداب ط ١ .

وهذا الموقف الماركسى من الدين ليس أصيلا أو جديداً كل الجدة ، بل هو ترديد يوشك أن يكون حرفيا للتيارات الالحادية التى ظهرت فى أوربا خاصة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كنتيجة من نتائج الضغط والارهاب الذى كانت تمارسه الكنيسه حينذاك .

فالباورون « دولباخ » - القرن ١٨ - يقرر فى كتابه « المسيحية من غير ستار » :-

« كل ماذكرناه حتى الآن يثبت بأجلى صورة أن الدين المسيحى معاد للسياسة السليمة ، ولسعادة الأمم »

كما يقول :-

« الدين هو فن إسكار الناس بالحماسة ، لمنعهم من الاهتمام بالمصائب التى ينزلها بهم أولئك الذين يحكمونهم » (١)

والبارون دولباخ هو الذى أقام كتابة « نظام الطبيعة على فكرة أن مفهوم الله خطأ شامل لدى الجنس البشرى(٢) .

ويقول « ميلييه » أيضاً :-

« الجهل والخوف : هذان هما محورا كل دين » .

لقد كان هدف المشرعين الأوائل أن يسيطروا على الشعوب ، فكان أيسر سبلهم إلى ذلك أن يخيفوهم ، وأن يمنعوهم من إعمال العقل .

---

(١) روجيه جارودى .. ماركسية القرن العشرين ص١٥٩ .

(٢) اندريه كريسون . تيارات الفكر الفلسفى من القرون الوسطى حتى العصر الحديث ترجمه نهاد رضا ص ١٦٣ .

وكلما ازداد المرء إمعاناً فى دراسة النواميس والمبادىء الدينية يزداد قناعة بأن هدفها الوحيد مصلحة الطغاة والرهبان »(١) .

ومع عدم أصالة الموقف الماركسى فاننا عند مناقشته نجد أنه يقوم على ثلاثة ركائز أساسية تلخص موقف الماركسية من الدين وهى :

١ - القول بأن المادة أزلية لم يخلقها أحد ، وما يترتب على ذلك من إنكار الألوهية .

٢ - القول بأن الدين مخترع .

٣ - القول بأنه أفيون الشعوب .

وفى كل من الأسس الثلاثة :-

- خروج على المنهج .

- وخطأ فى الفكر .

وفى الفصول الثلاثة القادمة بيان ذلك .

---

(١) روجيه جارودى . ماركسية القرن العشرين ص ١٦٠ .

الفصل الأول

هل المـادة أزلية ؟

يتجلى خروج الماركسية هنا عن المنهج فى أنها أعلنت نفسها « فلسفة علمية » أو فلسفة علمية مادية واقعية ... إلى آخر هذه التسميات المعروفة عن الماركسية .

ومن شأن المنهج العلمى الطبيعى — كما هو معروف — الاقتصار على موضوع الطبيعة وعدم تجاوزها إلى ماوراء الطبيعـــة ، لأن وسائله التى يعتمدها هى « الملاحظة والتجربة » ، وهـــذه الوسائل قاصرة عن إدراك « الميتافيزيقا » فهى لا تملك إزاءه أية وسيلة للنفى أو الاثبات .

ولقد كان مقتضى اختيار الماركسية لهذا المنهج العلمى الطبيعى واعلان نفسها « فلسفة علمية » أن تلتزم بموضوع هذا المنهج ولا تتجاوزه إلى غيره ، فتركز همها على دراسة الطبيعة وتسكت عما وراء الطبيعة فلا تتعرض لشىء منه بنفى أو إثبات ، ولكنها بعد أن أفتت فى عالم المادة فتاواها تقحمت عالم الغيب ، وتسرعت فيه بالنفى القاطع الذى تطلقه المجازفة الخالية من الدراسة والتروى .

ولذلك لم يكن عجبا أن تأتى أحكام الماركسية وأفكارها خاطئة فيما يتعلق بالمـادة نفسها ، وتفسير وجودها .

فهى تزعم — كما أشرنا من قبل — أن العالم الذى يحيط بنا لم يخلقه أحد ، وأن الطبيعة موجودة وجوداً أزليا .

وهى تفسر العالم منطلقة من العالم ذاته ، دون اللجوء إلى الاعتماد على قوى خارقة للطبيعة يزعم وجودها خارج العالم (١) » .

ومعنى ذلك — كما هو واضح — أن لا إله خلق الكون ، وإنما الكون هو الذى خلق ذاته بذاته.

ولكى يتبين خطأ هذه الفكرة لابد أن نتذكر أن الأزلى — كما يجمع العقلاء — لابد أن تجتمع فيه أمور ثلاثة :-

١ — أن يكون وجوده من ذاته ومتوقفاً على ذاته ، ومن ثم فإنه يكون مستغنيا فى وجوده وفى بقاء هذا الوجود واستمراره عن غيره ، ولا يستطيع غيره أن يؤثر عليه فى إيجاد أو إعدام أو تحويل .

٢ — أن يكون قديما لابداية له ، لأنه لو كانت له بداية لكان محدثا من العدم فلا يكون أزليا .

٣ — أن يكون باقيا لانهاية له ، لأنه لو كانت له نهاية لكان هناك من يستطيع إفناءه .

والماديون عموماً يسلمون بهذه الشروط الواجب توافرها فيما هو أزلى ، لكنهم يحاولون جهدهم أن يطبقوها على المادة ، ويدعون أنها أزلية ، على وفق هذه الشروط .

فهل المادة كذلك ؟

---

(١) المادية الديالكتيكية . . مجموعة من العلماء السوفييت . ترجمة فؤاد مرعى . بدر الدين السباعى . عدنان جاموس . طبعة دمشق ص ٣ .

أنظر : المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد . محمد عمارة ص ٤٨ دار المعارف ط بمصر .

حدوث المادة :

ولنبدأ فى هذه المناقشة بما يسلمه الماركسيون والناس جميعاً من الواقع المشاهد .

والواقع المشاهد أن المادة من حولنا تتغير وتأخذ تشكيلات وصوراً عدة لاحصر لها ، بل إن الذين يقولون بأزليتها ، لايستطيعون أنفسهم إنكار التغير الذى يجرى على مادتهم هم ، تلك التى شكلت أجسامهم .

وإذا كانوا لايعترفون إلا بالمحسوس ، فهم يعترفون بتلك التغيرات الفسيولوجية التى تتداول عليهم ، من صحة ومرض ، ومن تفاعلات هائلة أخرى ، لايستطيعون لها دفعاً ولايستطيعون لها إنكاراً .

وحسب خطتنا فى المناقشة معهم من البدء بالمشـــاهد والملموس الذى لاينكر ، فإننا نلفت نظرهم إلى ظاهرة النمو والشباب والشيخوخة ثم الوفاة وتلك كلها حقائق واقعية أو بعبارة أخرى : تطورات مشاهدة ، فما التفسير لهذا التغير فى المادة . ؟

ولاتفسير هنا إلا أن المادة لاتبقى على صورة واحدة .

اللهم إلا إذا توفرت شروط خارجة عن المادة تبقيها على هذه الصورة أو تلك ، فبقاؤها على صورة ما . ليس من ذاتها . بل بأمور خارجة عنها .

فإن قال الماركسيون : إن المادة لاتفنى بالموت ، وإنما تتحول إلى مواد أخرى ، وهذه المواد بدورها تتحول إلى مواد غـــيرها وهكذا فإن كمية المادة لاتفنى .

فإن هذا القول وإن كان يسلم معنا بجريان التغير على كل مادة فإنه يقع فى مغالطة لاتثبت أن تنكشف أمام قليل من التأمل .

ذلك أن هناك فرقا بين المادة الواقعية والمـــادة الذهنية — فالمادة الواقعية : هى المادة الموجوده فى الواقع ، وهى دائماً على صورة معينة .

أما المادة الذهنية فهى تلك المادة التى يستخلصها الذهن من المواد الواقعية ويجردها من أية صورة .

وهذه المادة لاوجود لها إلا فى الذهن فقط .

فالمادة التى يتكون منها زيد من الناس مثلا هى مادة واقعية مخصوصة ، مركبة من عناصر معينة ، على هيئة مخصوصة ، بحيث تمثل هذا الرجل بالذات وتميزه عن غيره من الناس ، وبموته تفنى هذه المادة الواقعية وتتحول إلى مواد أخرى على هيئة وصورة تختلف عن الصورة الأولى بحيث لايمكن لأحد مهما كان بليد الحس قليل التعقل ، أن يزعم أن زيداً هذا مازال موجوداً .

حتى المواد التى تحول إليها ذلك الانسان بعد موته ، تتحول هى الأخرى إلى مواد غيرها على صور أخرى وهكذا إلى ماشاء الله .

فالمادة إذن — كل مادة — لابد أن تكون فى صورة ما ، والصور كلها لاتبقى ، فكيف تبقى المـادة ؟ اللهم إلا إذا افترضنا تلك المادة النظرية الذهنية . وحينئذ يكون وجودهـــا فى الذهن فقط ولاوجودها لها فى الواقع .

حتى هذه رغم أنها مجرد افتراض عقلى ، فهى مرهونة ببقاء العقل الذى افترضها ، وهى تغنى بفنائه .

فإن قيل إن صورة المادة تتغير ، ولكن العناصر المكونه لها باقية ، وهى العناصر الأولى للمادة . فكل مادة مكونة من عناصر معينة على

صورة ما : وحين تزول الصورة تتحلل إلى عناصرها الأولى فزوال الصورة لايعنى فناء المادة وزوالها نهائياً .

فإنه يمكن الاجابة عن ذلك : بأن المواد تفقد جزءاً من الحرارة خلال عملية التطور والانتقال من صورة إلى صورة وإن كان هذا الجزء لايتنبه إليه إلا بعد عمليات تطور وانتقال كثيرة جداً، عايؤدى فى النهايه إلى فقدان الطاقة وفناء المادة، وسنتاول ذلك بعد قليل عند الكلام عن فناء المادة .

ومن بدهيات العلم الحديث : أن المادة يمكن تفتيتها إلى ذرات متناهية فى الصغر ، وهذه بدورها يمكن تحويلها إلى ذرات أشد صغراً ، وهكذا تستمر عملية التفتيت حتى تنتهى المادة إلى طاقة ، وعندئذ تخرج المادة من نطاق الحس كله ، وتتحول إلى غيب من الغيوب لايعرف أحد كنهه .

فإن قيل : إنه رغم عدم معرفة كنه الطاقة المحولة عن المادة ، فإننا نعرفها بأنها مادة تحولت إلى كيفية من الكيفيات ، وهذه الكيفية رغم جهلنا بحقيقتها لاتعدو أن تكون مادة تعود عن طريق التكثيف .

فإننا نقول : حتى ذلك القول يثبت :-

١ — أن المادة لا تلزم صورة واحدة ، ومن ثم فهى مفتقرة إلى غيرها باستمرار فى عملية التحول المستمرة التى تلازمها .

٢ — أن المادة قد تخرج عن نطاق الحس وبهذا يبطل الزعم القائل بأن الوجود الحقيقى (المحسوس) هو للمادة .

وقد دعم العلم المادى الحديث هذه القضية بأن وضع العلماء عدة حقائق لامحسوسة يفسرون بها كثيراً من ظواهر الكون كالجاذبية والمغناطسية والكهرباء.(١)

---

(١) راجع فى ذلك . عباس العقاد . كتاب الإسلام والحضارة الانسانية =

فهل للماديين بعد هذا وجه للقول بأن الوجود الحقيقى هو الوجود المحسوس فقط دون غيره من أنواع الوجود . أو وجه للقول بأن المحسوس فقط هو الموجود .

وبنفس القدر الذى دعم به العلم هذه القضـــية ، وأضعف من موقف الماديين عموما والماركسيين بصفة خاصة ، فقد قوى من موقف المفكرين المؤمنين الذين طالما استدلوا على تغير المادة بأن المادة: إما أن تكون جوهرا (قائماً بذاته) أو عرضا (وصفا طارئا قائما بالجوهر) : وكل من الجوهر والعرض متلازمان لاينفك أحدهما عن الآخر (بالمشاهدة) إذ لا تخلو مادة من صورة ما ، ولما كانت الأعراض كلها متغيرة فقد لزم أن تكون الجواهر كلها متغيرة أيضاً(١) .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التغير الذى يطرأ على المواد من صورة إلى صورة ، ولفت النظر إلى وجوب استخلاص العبرة منه فقال تعالى :

« الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق مايشاء . وهو العليم القدير »(٢) :

كما قال تعالى :

= ص ٥٢ وكتاب لاشيوعية ولا استعمار ص ١٣ — ١٨ ط ٢ دار الكتاب العربى . بيروت و د . جعفر شيخ إدريس . الأسس الفلسفية للمذهب المادى . عرض ونقد .

(١) كتاب المقاصد . للتفتازانى . الالهيات

(٢) سورة الروم الآية ٥٤ :

« إن الله فالق الحب والنوى . يخرج الحى من الميت . ويخرج الميت من الحى . ذلكم الله ، فأنى تؤفكون » (١) .

وهذا ما عناه مفكرو الإسلام حين استدلوا بتغير العالم على حدوثه فقالوا : العالم متغير وكل متغير حادث ، لأن تغير المادة يدل على انها كانت فى صورة أولى تحولت عنها إلى غيرها ، وأن الذى وضعها فى صورتها الأولى وحولها إلى صورها الأخرى هو محدثها .

كذلك يدل تغير المادة على أن الشىء الذى يتغير غير مستغن فى وجوده عن غيره ، وليس وجوده ذاتياله فلا يمكن أن يكون أزليا ، لأن الشرط الأول للأزلى أن يكون وجوده من ذاته .

على أن الماركسيين أرادوا أن يهربوا من هذه النتيجة (حدوث المادة وعدم أزليتها التى ترتبت على تغيرها من صورة إلى صورة) . فقالوا : إن التغير فعلا حاصل ومشاهد ، ولاسبيل حقا إلى إنكاره ، لكنه لايدل على حدوث المادة وعدم أزليتها ، لأنه يتم من داخل المادة ذاتها وبفعل قوانين ذاتيه أهمها قانون التناقض .

لكننا ردا على ذلك نسجل :-

أولا : أن زعم ماركس بأن قوانين الصراع والتناقض هى الأساس فى تسيير الطبيعة لم يثبت علميا .

ذلك أن ماركس اقتبس فكرة « هيجل » التى كانت تقوم على أن بين الأفكار صراعا مستمراً أو ماسماه « جدلا » « دياليكتيك » فكل فكرة لها نقيض ، ومن الصراع بين الفكرتين المتناقضتين تنشأ فكرة ثالثة ، وهذه

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٥ .

الفكرة الثالثة تسود وتنتشر حتى يتصارع معها نقيض ، فينتج الصراع بينهما فكرة أخرى وهكذا(١) .

وحاول ماركس أن يطبق هذه الفلسفة المثالية على المادة فذهب إلى أن كل مادة تحتوى على نقيضين متصارعين ومن الصراع بينهما ينشأ عنصر جديد ، وهذا العنصر الجديد يحمل فى طياته أيضاً عناصر وذرات متناقضة .

وينشأ من صراعها عنصر آخر . . وهكذا .

لكن التقدم العلمى فى القرن العشرين ، أثبت أن فكرة ماركس فى هذا الصدد لم تكن إلا ظنوناً باطلة ، إذ اكتشف العلماء أن حركة الذرات فى المادة ليست مدفوعة بعامل التضاد والتناقض فقط ، بل هى مدفوعة بعامل التزواج والتلاقى أكثر مما هى مدفوعة بعامل التناقض .

ففى الكون حوالى مائة عنصر ، تتكون من بعضها المواد ، وبمقدار النسب الموجودة من بعض هذه العناصر ، ووضعها على ترتيب معين تتكون مادة معينة ، فإذا تغيرت نسبة عنصر منها أو تعدل وضعه نشأت مادة جديدة .

ويشبه الدكتور « عبد المحسن صالح » فى كتابه « دورات الحياة »(٢) حركة الذرات بحركة الكائنات الحية خاصة المجتمعات الإنسانية من حب

---

(١) هيجل : فيلسوف ألمانى عاش فيما بين سنتى ١٧٧٠-١٨٣٠ درس فى جامعة هيدلبرج وجامعة برلين حتى توفى بالكوليرا وهو فيلسوف مثالى صاحب النظرية الجدلية المشهورة المشار إليها هنا .

(٢) راجع عبد الحليم خفاجي . حوار مع الشيوعيين ص ١٣٩ .

وبغض، وتلاق وفراق، بين الأفراد وبين الذكور والإناث، يقول :-

«(ا) والماء — كل ماء — يتكون من ثلاث ذرات متحدة، ولو جئت بماء زلال، وأردت أن تفصل ذراته، يخرج لك منه ماردان أوغازان . أحـــدهما يحترق بلهب أزرق (الأيدروجين)، والثانى يساعد على اشتعال النيران داخل أجسام الأحياء (الأوكسجين) ولكن إذا تقابل الحارق والمحـــترق (يدا) أعنى ذرتين بذرة، أعطت كل ذرة من الأيدروجين اليكترونا للأوكسجين وتحول الثلاثة إلى جزىء ماء. لا هو حارق ولا هو محترق» .

ويقول :

«وقد تصادق الذرة ذرة من بنى جنسها، لتكون جزيئاً، فنجد أن النتروجين يرتبط بذرة من النتروجين ليعطينا جزئياً منه والأوكسجين بالأوكسجين . . وهكذا .

وقد ترتبط ذرة بذرة أو بعدة ذرات، وقد تهجرها إذا لاح لها فى أفق التفاعلات شق جديد فتترك ما ارتبطت به من قبل لترتبط بهذا ارتباطا أكثر وثوقا من سابقه .. وهناك بعض العناصر تعيش ذراتها فرادى ولا يمكن أن تجتمع فى مثنى أو ثلاث أو رباع أو أكثر، ومنها غاز النيون والراودون .

وهكذا تجتمع معظم الصور التى كانت تحكم مجتمعاتنا فى علم الذرات والجزئيات من ميل وتنافر، وحب وبغض، وارتباط وهجران، وأفراد لا تجتمع، وأفراد أو ذرات لا بد أن تجتمع» .

وقد أحس « انجلز » أن نظريته وزميله « ماركس » ، فى التناقض قائمة على غير أساس علمى فقال فى كتابه : « جدل الطبيعة » :

« لم نعتسف القول بأن فى كل شىء صراعا داخلياً ، وأن كل شىء جدلى ، ونذهب إلى بناء فلسفات على هذا الأساس غير العلمى ، وننسى فى ذلك كله أن نقطة الانطلاق وهى الذرة التى هى وحدة الطبيعة ليس فيها تناقض ولا صراع ، وأن كل الأنواع قد تكونت نتيجة اندماج الذرات وتأثرها وتأثيرها ، وتحولها فى حركاتها الدائمة ، وأن ناتج هذا التأثير المتبادل هو التغاير »(١).

ثانياً : إننا إذا افترضنا أن القوانين التى تحكم المادة هى قوانين ذاتية وأن المادة هى التى تحدث التغيير فى داخلها بنفسها دون حاجة إلى عقل كلى كما تقول النظرية الماركسية فالسؤال هو : من أودع فى المادة هذه القوانين ؟

ثالثاً : لو كانت المادة هى التى أودعت فى ذاتها هذه القوانين التى تعبر عن عقل وحكمة ودقة ، فمعنى ذلك أن المادة لديها عقل حكيم دقيق وأن كل عنصر من عناصرها لديه من هذا العقل الكلى جزء منه مما يمكن بواسطته أن يختار أن يكون على هذا الوضع أو غيره ، فنواة التمر مثــلا يمكن أن تكون نخلة ولديها الخيار فى أن تكون شجرة برتقال ، وهذه الأخرى لديها خيار فى أن تكون كذلك أو تكون شجرة ليمون .

لكن الواقع الذى تؤكده المشاهدة العادية ويؤكده العلم المادى أن تكون كل أجزاء المادة تخضع خضوعا جبريا للقوانين التى تسيرها لا تحيد عنها

---

(١) عبد الحليم خفاجى — حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون ١٤٠.

وليس أمام أى جزء منها خيار آخر غير الذى كان،ا يقطع بأن هناك عقلا خارج المادة هو الذى وضع هذه القوانين ، وسخرها لها .

وقد أشار القرآن إلى ذلك حين لفت سبحانه النظر إلى خضوع كل عنصر من عناصر المـــادة إلى قوانين خاصة به وضعها سبحانه فاختلفت بموجبها الموجودات وتنوعت فقال تعالى :

« وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »(١) .

والماركسيون أنفسهم يعترفون بهذا التسخير ويصفون خضوع المادة لهذه القوانين الخارجة عنها بأنه خضوع حتمى وهم قد غفلوا عما فى هذه الحتمية من نفى لأى عقل ذاتى لدى المادة ، وهم فى الوقت ذاته قد سلموا أن المادة بهذا الخضوع الحتمى قد فقدت شرطا من شروط الأزلية وهى القيام بالنفس وعدم الاحتياج إلى الغير فى وجودها وتطورها .. ومعنى ذلك أنها حادثة :

وحدوث المادة وقد ثبت على هذا النحو يفرض أن تكون لها بداية ونهاية شأن كل حادث .

بداية وجود المادة :

أما البداية : فهى بدهية أو تكاد أن تكون بدهية ، فما دامت المادة بكل ذواتها وصفاتها متغيرة ، ولا تستطيع أن تمسك وجودها على صورة معينة واحدة إلا بمقوم خارجى عنها ، فإنها لا بد أنها كانت على صورة أولى تحولت عنها إلى غيرها ذلك أنه إذا كانت الأعراض (صفات المادة)

---

(١) سورة الرعد الآية ٤

لها بداية ، وكانت ملازمة المادة دائما بحيث لا تخلو مادة أبدا من صورة أو عرض ، فلا بد أن تكون المادة بداية أيضاً .

ولقد أيدت الكشوف العلمية فى العصر الحديث أن للمادة بداية ؛ إذ لوحظ أن حركة المـــادة فى الكون كله حركة دائرية ، فكل ذرة من ذرات الكون مؤلفة من جزىء كهربى موجب يسمى « البروتون » ، وجزىء كهربى سالب يسمى « الإلكترون » ، وبعض الذرات تحتوى على جزىء كهربى ثالث معتدل يسمى « النترون » .

ويشكل « البروتون » و « النيترون » — فى حالة وجـــوده — كتلة النواة ، أما « الإلكترون » فيدور حول النواة بسرعة دائرية هائلة ، ولولا هذا الدوران لجذبت كتلة النواة كتلة الإلكترون ، ولم يكن هناك امتداد لأى مادة على الإطلاق بل لولا هذا الدوران لكانت الأرض كلها — كما يقال — فى حجم بيضة الدجاجة »(١) .

وهذا الدوران هو سنة الله فى الطبيعة . فالقمر يدور حول الأرض ، والأرض تدور حول الشمس ، والكواكب السيارة تدور حول بعضها البعض فى حركة دائرية دائبة لا تتوقف وهكذا كل ذرة تدور فى هذا الكون .

الذى يعنينا هنا أن الشىء الدائر لا بد أن تكون له نقطة بداية زمانية ومكانية ابتدأ منها ، وعليه فتكون الأجرام كلها لها بداية زمانية ومكانية ضرورة أنها فى حركة دائرية .

---

(١) سعيد حوى . الله . ص٢٣ ط١ دار الدعوة . بيروت .

يقول « جون كوشران » : -

« وتدلنا الكيمياء على أن بعض المواد فى سبيل الزوال والفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة ضئيلة وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية ، إذ أن لها بداية .

وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية بل وجدت بصورة فجائية . وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذى نشأت فيه هذه المواد »(١) .

كما يقول « إيرفنج وليم » : -

« فعلم الفلك مثلا يشير إلى أن لهذا الكون بداية قديمة ، وأن الكون يسير إلى نهاية محتومة ، وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد بأن هذا الكون أزلى ليس له بداية ، أو أبدى ليس له نهاية ، فهو قائم على أساس التغيير »(٢) .

نهاية المادة : -

وكما توصلنا إلى أن المادة لها بداية من ملاحظة التغير فيها ، فإن هذا يسلمنا أيضاً إلى أن لها نهاية .

وقد أكد العلم الحديث أيضا نهاية المادة بأدلة عديدة وقوانين شتى نختار منها على سبيل المثال : -

---

(١) د . دمرداش سرحان : الله يتجلى فى عصر العلم / ص٢٥ ط٣ مقال ادوارد لوتر كيسيل .

(٢) المصدر السابق ص٥٣ مقال إيرفنج وليام نو بلوتشو .

١ — القانون الثانى للحرارة الديناميكية .

٢ — قانون تحطم الشموس .

(١) أما القانون الثانى للحرارة الديناميكية الذى يعتبر بحق مفتاح فهمنا المادة غير الحية — كما قال « ليكونت دى نوى » رئيس قسم الفيزياء فى معهد باستور ورئيس قسم الفلسفة بجامعة السوربون فى كتابه « مصير البشرية » .

ويحوى هذا القانون أن هناك انتقالا حراريا باستمرار من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة . ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية من الأجسام .

ومعنى ذلك أن الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام ، وينضب منها معين الطاقة حتى يصل إلى الصفر وحينئذ تتوقف كل العمليات الكيماوية والطبيعية ، وتنعدم آثار الحياة فى الكون كله(١).

٢ — أما فكرة تحطم الشموس كمصدر للطاقة فى هذا الوجود ، فقد كان الباعث عليها سؤال : من أين تستمد شمسنا التى نراها ، وكل النجوم والكواكب الأخرى طاقتها الحرارية .

وقد توصل العلم الحديث إلى أن ذرات هذه الشموس تتحطم فى قلبها المرتفع الحرارة جداً ، وبواسطة هذا التحطم الهائل المستمر تتولد هذه الطاقة الحرارية التى لا مثيل لها .

وكما هو معلوم فإن الذرة عندما تتحطم تفقد جزءاً من كتلتها حيث

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٧ مقال إدوارد لوثركيسيل .

يتحول هذا الجزء إلى طاقة ،فكل يوم يمر ، بل كل لحظة تمر على أى شمس فإنها تفقد جزءاً ولو يسيراً من كتلتها ، ومعنى هذا بالضرورة أن سيأتى الوقت الذى تستنفذ الشموس كتلتها نهائياً(١) .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى أن لهذا الكون نهاية محتومة فقال تعالى : -

« كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام »(٢) .

كما قال تعالى:-

« لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » (٣) .

* * *

وهكذا ننتهى بالعلم ، والعقل ، والدين إلى إبطال القول بأزلية المادة فى وجوه الأزلية الثلاثة وهى :-

- عدم الاحتياج إلى الغير .
- وعدم الأولية .
- عدم الفناء .

وأثبتنا حدوثها بأشكال الحدوث الثلاثة أيضاً :-

- التغير .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٠ - ٢٤ .

(٢) سورة الرحمن الآية ٢٦ .

(٣) سورة القصص الآية ٨٨ .

ثـ والبداية .

جـ والنهاية .

ولا يبق للماديين الماركسيين وجه فى هذا الموضوع .

وننتقل إلى الركيزة الثانية فى الموقف الماركسى من الدين وهى : القول بأن الدين مخترع .

الفصل الثانى

هل الدين مخترع ؟

إذا كنا فى الفصل الماضى قد أثبتنا خروج الماركسية على المنهج العلمى وخ. أما فى ادعاء أن المادة أزلية لاتحتاج إلى عقل كلى ، فإننافى هذا الفصل سنناقش الماركسية فى ركيزتهاالثانية فى موقفها من الدين وهىالادعاء بأن الأديان مخترعة .

وبادىء ذى بدء نقول إنه ليس هناك ما هو أكثر اسفافا وتهافتا وخروجا على الموضوعية والمنهج العلمى من هذا الادعاء لأكثرمن دليل :-

أولا . . إن الماركسية لا تقدم دليلا واحداً على هذا الادعاء سوى رفضها لوجود إله يأتى من عنده دين . وادعاؤها هذا مرفوض ، وسنثبت ذلك عند تأكيدنا لوجود الله .

وقدكان المنهج العلمى يفرض ألا تلقى القول على عواهنه ادعاء بلا بينة ، قصارى ما تقوله إن الدين اخترع لاستغلال الفقراء ، وهذا يعتبر بيانا للسبب الذى من أجله يمكن أن يخترع الدين ، ولا يعتبر دليلا على الاختراع فعلا بحال من الأحوال ، وهوسبب ساقط ، لما نعرفه من وقوف الدين فى صف الفقراء ودعوته الدائمة لإنصافهم ومساعدتهم .

ثانيا . . ومن جهة ثانية فإن الماركسية وهى تطلق ادعاء الاختراع بلا دليل يدل عليه،تترك الناس فى حيرة من أمر هذا الكون .

ذلك إنه بعد إنكار الخالق ينبعث سؤال يفرض نفسه على العقول فرضاً : من أوجد هذا الكون إذن ؟ خاصة بعد ما تبين بالأدلة أنه حادث

متغير ، وأن مواده وعناصره تتشكل من صورة إلى صورة وتنتقل من حال إلى حال حسب قوانين ثابتة ، فمن أوجدها؟ومن أودع فيها هذه القوانين ، وسخرها على مقتضاها ؟

إن هذه الأسئلة ترحم القلب وتضغط عليه ، وتشكل عبئاً ثقيلا من القلق والتوتر بل التمزق ، دون أن يقدم الماركسيون إجابة شافية ولا يقدمون إلا الإنكار لله الإنكار الضيق الجامـــد الذى يمثل هو نفسه عبئاً فوق كل الأعباء .

والماركسيون يشعرون بهذه الورطة المحرجة،لأن احتمالاتهم فى تفسير الكون وتعليل وجـــوده لا تثبت كلها أمام المناقشة الموضوعية لأن هذه الاحتمالات كلها لا تعدو أن تكون واحداً من ثلاثة :-

(ا) أن يكون هذا الكون قد نشأ من العدم المحض من غير موجد .

(ب) أو يكون هو الذى أوجد نفسه .

(ح) أو يكون الموجد هو الله .

والاحتمال الأول ــ الوجود من العدم من غـــير موجد ــ باطل بداهة .

ذلك أننا عندما نقول : (العدم) فإن معناه الخلو والانتفاء من أى شيء موجد أو شيء موجود(١) وعليه: فالوجود من العدم من غير علة فاعلة يعنى وجوداً من لا وجود وهذا تناقض ولذلك يقال إن العدم لا ينتج وجوداً .

ثم إننا مادمنا قد أثبتنا أن هذا الكون حادث فمعنى ذلك أن له محدثا ، وباطل أن يكون هو الذى أحدث نفسه (الاحتمال الثانى) لأن معنى أحدث

(١) راجع : المعجم الفلسفى . مرادوهبة ويوسف كرم ويوسف شلالة ص ١٤٠ ط ٢ .

نفسه أنه كان موجودا قبل الإحداث يعني أنه متقدم على نفسه ، ومعنى أنه محدث (بفتح الدال) أنه متأخر وهذا تناقض ؛ إذ يلزم عليه أن يكون الشيء الواحد موجوداً ومعدوماً فى وقت واحد ، موجوداً لأنه خالق ومعدوماً لأنه لم يخلق بعد ، وهذا تناقض واضح كما نقول .

فلا يبقى إلا تعين أن يكون المحدث للكون هو غير الكون ، ولابد أن يتصف بصفات غير الصفات الحادثة التى يتصف بها الكون ، لأنه لوكان متصفاً بهذه الصفات الحادثة لاحتاج هو أيضاً إلى خالق يحدثه ،

أما القول بالمصادفة أو الطبيعة فى تفسير وجود الكون ،

أو القول بالقوانين الذاتية المستكنة فى المادة .

فزعم لا يقوم على أساس من العلم أو العقل .

والماركسون بهذه المزاعم يخرجون خروجاً صارخا على المنهج العلمى لأنهم بذلك ينكرون مبدأ السببية الذى هو أساس العلم ، فلكل ظاهرة سبب ، ولكل سبب مسبب ، وبمقتضى هذا المبدأ يفسر العلماء كل شيء فى الكون .

عن المصادفة :ـ

(ا) فإذا كان قد ثبت لدينا أن المادة محدثة فلابد لها من محدث، ولوكان للمصادفة سلطان فى هذا الكون لضـــاعت المقاييس من أيدى العلماء وبطل العلم .

(ب) على أن المصادفة لها قانون تسير عليه هى الأخرى فحواه : أنه على قدر الاحتمالات يكون الإمكان ، فلوكنا إزاء أمر فيه احتمالان فقط كوجود الشيء أو عدمه مرة واحدة ، فإن نسبة تحقق أحدهما بالمصادفة تكون بنسبه ١ : ٢ ، وإذا كانت الاحتمالات ثلاثة كانت النسبة ١ : ٣ وهكذا كلما تكاثرت الاحتمالات قلت نسبة المصادفة .

(حـ) كذلك من قوانين المصادفة أن تقـــع مرة ، فإذا تكرر وقوعها

حسب نظام معين وخطة ثابتة فإنها لاتكون مصادفة بل تكون حينئذ نظاماً ثابتاً مطرداً .

وأدنى ملاحظة للنظام الدقيق الذى يخضع الكون له فى وجوده وتطورات ظواهره البالغة الكثرة حسب قوانين ثابتة لاتتخلف يبطل أى أثر للمصادفة فى هذا الكون .

وهناك أمثلة كثيرة تورد فى هذا المجال مثل :ـ

ـ لو أننا مزقنا كتاباً إلى جزءين ، ثم ألقيناهما بعيداً فانضم كل جزء إلى الجزء الذى يكمله حتى عاد الكتاب إلى وضعه الأول لكان ذلك ممكنا بنسبة ٥٠٪ لكننا إذا مزقنا الكتاب نفسه إلى أربعة أجزاء فإن عودته إلى وضعه الأول لاتكون محتملة الابنسبة الربع فقط ولو قطعناه إلى ألف قطعة مثلا أو اكثر فهل يصدق عاقل أننا بمجرد أن نرى هذه القطع الألف تعود بالمصادفة حروف الكتاب وكلماته إلى وضعها السابق بحيث يمكن أن نقرأ الكتاب بلا عناء .

ـ لو اصابت هزة أرضية مطبعة فقلبت صناديق الحروف وخلطتها بعضها فى بعض ، فهل يصدق عاقل أن قصيدة لامرىء القيس مثلا يمكن أن تنشأ من جراء هذه الهزة .

ـ لو ألقى إنسان إبرة على منضدة ثم ألقى بابرة ثانية فجاءت رأسها فى عين الإبرة الأولى وقلنا إنها المصادفة لكان ذلك ممكنا لكننا إذا رمينا بابرة ثالثة وجاءت رأسها فى عين الابرة الثانية لقل احتمال المصادفة وزاد احتمال القصد والارادة ولو ظللنا نفعل الشىء نفسه حتى رمينا الابرة العشرين فجاءت رأسها فى عين الإبرة التاسعة عشرة مثلا لكان احتمال المصادفة مستحيلا فما بالنا بملايين الموجودات توجد كل لحظة حسب قانون ثابت منتظم عبر ألوف السنين .

ومن أطرف الاستدلالات فى هذا الباب ما نقل عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه من أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى فقال لهم: دعونى فانى مفكر فى أمر قد أخبرت عنه. ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها وهى مع ذلك تذهب وتجىء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد.

فقالوا: هذا شىء لا يقوله عاقل،

فقال: ويحكم! فهل هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟

فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه (١).

عن الطبيعة: ـ

وإذا كان القول بالمصادفة لا يصلح لتفسير الكون فإن القول بالطبيعية لا يصلح هو الآخر لأننا إذا افترضنا أن الكون خلق هكذا بالطبيعة كما يقول بعض الماديين فإننا نسأل: ـ

ما الطبيعة؟

ـ هل هى ذوات الأشياء؟

ـ أو هى خصائصها وصفاتها من قابلية للخلق أو النمو أو النقصان؟

ولئن قلنا إن طبيعة المادة هى ذات المادة فكيف يخلق الشىء نفسه؟ ولقد أثبتنا استحالة ذلك وأوضحنا أنه يلزم عليه أن يكون الشىء متقدماً على نفسه متأخراً عنها موجودا معدوماً فى وقت واحد.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى «يا أيها الناس اعبدوا ربكم».

أما إذا قلنا إن طبيعة المادة هى صفاتها فإن هذا القول أيضاً لا يصلح لتفسير وجود الكون لأن وجود الصفة - كما هو معلوم - متأخر عن وجود الموصوف فكيف توجد صفة الشيء قبل وجوده هو ، وكيف توجد هذه الصفة موصوفها مع أنها لاحقة له وعرض من أعراضه وإذا كانت طبيعة الشيء بمعنى ذاته قد عجزت عن إيجاده فكيف تستطيع الصفة أن تفعل ذلك.

وهكذا يثبت أن كل التفسيرات التى تفسر وجود الكون وتطوره (بدون خالق) لا تثبت أمام المناقشة العلمية ويبقى التفسير الدينى (الايمان بوجود خالق)(١) هو التفسير المعقول الذى يحل كل المشكلات الناجمة عن الحيرة فى خلق الكون وتطوره لأنه يدل على خالق الكون وهو الإله الواحد الذى تختلف صفاته عن صفات الموجودات .

وبهذا التفسير وحده يرتاح العقل ويذهب كل أثر للتوتر والقلق فى ضمير الانسان وقلبه ، قال تعالى :

« ومن يؤمن بالله يهد قلبه »(٢)

ثالثاً . . إن الماديين عموماً ماركسيين وغير ماركسيين مع أنهم يتفقون فى أن الدين مخترع بشرى وليس من مصدر إلهى يختلفون فيما بينهم فى تعليل هذا الاختراع والباعث عليه . ماهو الأصل فى اختراع الدين وما الباعث على هذا الاختراع ؟

— فمن وجهة نظر بعضهم إن الدين اخترع من قبل الانسان البدائى لجهله بالطبيعة وعجزه عن إدراك ظواهرها من رعـــد وبرق وعواصف وغيرها ، ولم يكن بد أمام هذا العجز إلا أن يسند هذا البدائى هذه الظواهر إلى قوى خارجة عن الطبيعة تخيل فيها القوة والقدرة والكمال واتخذ بعض الموجودات كالحيوانات والأحجار مظاهر لما يتجه إليها بالعبادة والتقديس .

---

(١) سواء جاء به الدين أو توصل إليه العقل .

(٢) سورة التغابن الآية ١١ .

قال ماركس : -

« الدين أفيون الشعوب ، والدين وعى مزور عن العالم ، فالإنسان هو الذى يصنع الدين ، لا الدين هو الذى يصنع الإنسان ، كما أن العجز والجهل هما المصدر المزدوج للأخلاق والدين ، فالدين لايتبعه إلا ضعاف العقل(١) » .

كما قال انجلز : -

« إن الدين قد ولد فى عصـــور بدائية ، من تخيلات الناس الجاهلة الغامضة البدائية عن طبيعتهم ذاتها ، وعن الطبيعة الخارجة التى تحيط بهم(٢) » .

— ومن وجهة نظر البعض الآخر خاصة الماركسيين أن الدين اخترع من قبل الطغاة والإقطاعيين ليشغلوا الفقراء عن قضية الدنيا ومطالبهم وحقوقهم فيها بانتظار الفردوس الأخروى والصبر فى هذا الانتظار على المصائب التى يلحقها بهم الأغنياء .

وكل من النظرتين خطأ لايسيغه العقل .

أما النظرة الأولى القائلة بأن الإنسان اخترع الدين لجهله بالطبيعة فإنه لو كان ذلك صحيحا فإن عصر العلم يجب بناء على هذا أن يكون هو عصر الإلحاد ، لأن الإنسان على وفق هذا التفكير كلما ازداد علما بالطبيعة ازداد انكاراً لوجود الله وتنكراً للدين ، لأن السبب الذى جعله يؤمن فى البداية بالدين وهو جهله بالطبيعة ينزاح عنه شيئاً فشيئاً وتنزاح معه غشاوة الدين .

---

(١) مجلة الدولة والقانون السوفيتية عدد يناير ١٩٥٠

(٢) المصدر نفسه .

لكن تفسير التاريخ نفسه ينبيء بعكس هـــذا ، إذ أنه كلما ازدادت الكشوف العلمية ازداد إيمان المؤمنين وقوى سلطان الدين حتى فى نفوس الدين دخلوا المجال العلمى وهم على غير ثقة بالدين لأن حقائق العلم تبطل كل شك فى أن لهذا الكون خالقا حكيما مدبرا من خارج الكون وبدون الايمان بوجوده يظل الكون ومايحدث فيه بحاجة إلى التفسير والتعليل ومن هنا كان الدين ضرورة عقلية وكونية معاً .

يقول البرت ماكومب ونشستر :ـ

« ليس من شك أن العلوم تزيد الانسان تبصرا بقدرة الله وجلاله ، وكلما اكتشف الانسان جديدا فى دائرة بحثه ودراسته زاد إيمانه بالله(١) » .

كما يقول « ميريث ستانلى كونجدن »

« نستطيع بطريقة الاستدلال والقياس بقدرة الانسان وذكائه فى عالم يفيض بالأمور العقلية أن نصل إلى وجوب وجود قوة مسيطرة مدبرة غير هذا الكون وتدبر أموره وتعيننا على فهم مايغمض علينا من أمر منحنيات التوزيع ودورة الماء فى الطبيعة ودورة ثانى أوكسيد الكربون فيها وعمليات التكاثر العجيبة وعمليات التمثيل الضوئى ذات الأهمية البالغة فى اختزان الطاقة الشمسية ومالها من أهمية بالغة فى حياة الكائنات الحية ومالا يحصى من عجائب هذا الكون ، إذ كيف يتسنى لنا أن نفسر هذه العمليات المعقدة المنظمة تفسيراً يقوم على أساس المصـــادفة والتخبط العشوائى ، وكيف نستطيع

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٠٤ مجموعة من العلماء ترجمة الدكتور دمرداش سرحان

أن نفسر هذا الانتظام فى ظواهر الكون والعلاقات السببية والتكامل والغرضية والتوافق والتوازن التى تنتظم سائر الظواهر وتمتد آثارها من عصر إلى عصر ؟

كيف يعمل هذا الكون دون أن يكون له خالق مدبر هو الذى خلقه وأبدعه ودبر سائر أموره .

إن جميع مافى الكون يشهد على وجود الله سبحانه وتعالى ويدل على قدرته وخلقه » .

— أما النظرة الثانية فهى أكثر إفراطاً فى الخيال وأكثر وقوعاً فى الخطأ ؛ لأن الأغنياء والإقطاعيين إذا أغروا العمال والفلاحين بالخضوع للدين ومايعدهم من الفردوس الأخروى ليسكتوا عن حقوقهم فإن الأنسب لتحقيق هدفهم ألا يتخذوا الدين وسيلة لهذا الإغراء لأنه مامن دين حق يغرى بترك الحق والاستكانة للمخلوقين ومامن دين صحيح إلا وهو قوة إيجابية تدفع المتدين إلى قوة الروح والعمل على أخذ الحقوق والنقمة على الطاغين وسنبين ذلك ببراهينه فى الفصل القادم عند مناقشة أثر الدين .

سادسا . . إن اطلاق القول بأن الدين مخترع بشرى إنكار للتواتر التاريخى بوقوع المعجزة ، وهـذا الأنكار لايقوم على أساس عقلى أو حجة واضحة .

فالرسل جاءوا بالرسالات السماوية وأيدوا دعواهم الرسالة بالمعجزات التى أثبتت صدقهم وجعلت أقوامهم يدينون لهم والذين لم يؤمنوا بهم — وهم

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠

قلة — لم يسعهم إنكار المعجزة بل ظـــلوا معارضين مستكبرين بالباطل لايستطيعون إنكار المعجزة ومع ذلك لايقبلون الاذعان والطاعة وكان الدافع إلى موقفهم هو الخوف على المصلحة الشخصية لاعدم الاقتناع بالرسالة والرسول .

و ان نتعرض هنا لإثبات معجزات الأنبياء جميعاً من اليد والعصا لموسى أو ابراء الأكمه و الأبرص و إحياء الموتى لعيسى ، و إنما يكفينا هنا إثبات بعض الدلالات على صدق الرسالة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم و إثبات مصدرها الالهى لتكون أصلا لإثبات أن الاسلام و الأديان السماوية من مصدر الهى لامن اختراع بشر .

ونقف هنا عند بعض الدلالات ، لإثبات المصدر الالهى للاسلام ، ومنها : —

(ا) مايتعلق بالقرآن .

(ب) ومنها مايتعلق بالرسول .

(ج) ومنها مايتعلق بالرسالة .

(د) ومنها ماورد فى الكتب السابقة .

ا — ففيما يتعلق بالقرآن نورد هذه الحقائق .

١ — أن القرآن جاء فى أعقد الصناعات على مستوى خاص أعلى من كل المستويات التى عرفت فى تاريخ اللغات البشرية بحيث لم يستطع أحد مجاراته أو تحديه .

ذلك أن صناعة الكلام كانت عبر العصور ومازالت فى عصرنا العلمى المادى المتقدم أعقد الصناعات على الإطلاق، لأنها تتطلب مهارات ومواهب معينة لاتتوفر إلا القلة النادرة من الناس لأنها صناعة لاتتعامل مع الماديات

المحسوسة كغيرها من الصـــناعات العلمية بل تعتمد على عدة أمور كلها معنوية .

فالمتكلم البليغ يدرك المعانى والعواطف اللامحسوسة إدراكا قوياً وجليا ثم يستطيع أن يخرج هذه المعانى والعواطف فى قالب من الألفاظ المحسوسة بصورة تؤثر فى المستمع تأثيرا قوياً يجعله يقتنع بنفس الفكر الذى يحس به البليغ فى داخله ويشاركه نفس العواطف والأحاسيس .

ولذلك كانت قيمة البلاغة فى صناعة الكلام تقاس بمقدار البراعة فى تصوير المعنى باللفظ المناسب وبمقتضى الحال المناسب ، ويقاس البليغ بمدى قدرته على الإحساس بالمعنى الذى يجول بنفسه إحساساً واضحاً وبراعته فى تقرير الحال - حال المخاطب والظروف والجو المحيط بالكلمة - ثم قدرته على اختيار اللفظ المناسب للمعنى والحال ثم استطاعة التأثير والإقناع .

ورغم أن صناعة الكلام معقدة هذا التعقيد فإن الأمة العربية فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم كانت قد بلغت أعلى مستويات البلاغة اللغوية بآخر ماتطيقه القدرة البشرية حتى كان الشعر والحكمة يجريان على ألسنة العرب بالسليقة بلا تكلف .

وجاء القرآن فى هذا الوسط على أعلى من مستوى بلغاء العرب وتحداهم .

- أن يأتوا بمثله ، فعجزوا .

- فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله ، فعجزوا.

- فتحداهم أن يأتوا بسورة مثله ، فعجزوا .

فتحداهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، فقصرت أفئدتهم وعجزت ألسنتهم(١) .

بل إنهم حين حاولوا جاءت محاولاتهم هزيلة إلى درجة أنها أثارت سخرية الناس واستهزاءهم بها .

فعجزهم وهم على ذلك المستوى الرفيع الذى أشرت إليه من قبل والذى لم تصل إليه أمة فى لغتها عبر التاريخ الإنسانى .

وإذا كانت الأمة العربية بجميع فصحائها قد عجزت عن الإتيان بمثل شىء من القرآن من قبل وهم على مستواهم ذاك فهم فى عصورهم الحاضرة أشد عجزاً لأنهم أضعف لغة وفصاحة .

وما زال التحدى قضية معروضة حتى اليوم وستظل معروضة بعد اليوم وعجز المتحدين على كثرتهم وحرصهم على إبطال قضية الإعجاز القرآن يثبت بجلاء أن القرآن من عند الله وأنه من مصدر غير بشرى .

قال تعالى « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » .(٢)

كما قال تعالى « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٣) .

---

(١) الباقلانى — إعجاز القرآن ص ٨ — ٩ تحقيق سيد صقر ط ٣ دار المعارف بمصر .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣ ، ٢٤

(٣) سورة الإسراء الآية ٨٨

٣ — ومع هذا التحدى المعجز الذى يكفى وحده فى إثبات المصدر الإلهى للقرآن وتأكيد أن الإسلام الذى تضمنه هذا القرآن لا يمكن أن يكون مخترعا فإن هناك دليلا آخر يؤكد ذلك أيضاً وهو إخبار القرآن الكريم عن بعض الوقائع المغيبة ومنها ما حدث فى الماضى ولم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم سبيل إلى العلم به ومنها ما حدث فى المستقبل ولم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم ولا لغيره سبيل إلى العلم به كذلك .

(ا) فما حدث فى الماضى وأخبر به القرآن الكريم قصة خلق آدم وقصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر قصص القرآن الكريم .

صحيح أن أخبار هذه الوقائع والقصص كانت معروفة فى التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة قبل أن يتحدث بها الرسول عليه الصلاة والسلام ولكن مسألة الإعجاز ليست فى ورود هذه القصص فى تلك الكتب ولكنها فى علم الرسول بها .

فمن المعلوم أنها لا تعرف إلا بعد دراسة واطلاع على هذه الكتب وهذه الدراسة لا تتأتى إلا بمعرفة القراءة والاطلاع عليها أو مخالطة أهل الأديان السابقة المطلعين عليها .

والثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولم يجلس إلى أحد من أهل الكتاب يعلمه هذه الأنباء ولو كان قد فعل لما خفى على أعدائه الكثر حينئذ والذين كان همهم أن يبطلوا قضية القرآن .

فمن أين لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأخبار إذن ؟ إن لم تكن من عند الله .

إن التهمة الوحيدة التى حاول بها كفار قريش ذات مرة أن يبطلوا

دلالة هذه القصص على مصدر القرآن هي زعمهم أنه يتلقاها من غلام أعجمي كان في مكة ولكن القرآن أبطل هذه المحاولة بالمنطق القوي والحجة العقلية الدامغة التي اسكتتهم تماما عندما نزل قول الله عز وجل « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . لسان الذي يلحدون إليه أعجمي . وهذا لسان عربي مبين (١)، كما أشار القرآن إلى ذلك مرات أخرى في مثل قوله تعالى « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك . إذاً لارتاب المبطون »(٢) .

(ب) أما ما حدث في المستقبل وأخبر به القرآن قبل وقوعه فدلالة ثابتة على مصدره الإلهي . وهي عجيبة من عجائب القرآن الكريم تقطع كل شك أنه حقاً من عند الله لا من اختراع بشر ، لأنه لو كان من اختراع بشر لما استطاع – مهما أوتي – أن يخبر عن غيوب حدثت كما أخبر عنها لدقائقها وجزئياتها لأنه لا سبيل أمام البشر لمعرفة المستقبل ولا يعلم الغيب بالتفصيل إلا الله .

– فمن ذلك مثلا قوله تعالى « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

فقد نزلت هذه الآية في بداية أمر الإسلام والمسلمون قلة تحيط بهم العداوات من كل جانب ومن أهل كل دين في الجزيرة وخارجها ولم تكن الأمور كما تبدو لأي بشر تنبيء عن قوة مستقبلة أو انتصار ساحق أو سريع على القبائل في داخل الجزيرة أو على دولتي الفرس والروم وهما في غاية الغلبة والقوة ولا بد من دعوة هؤلاء إلى الإسلام أو بمعنى آخر لا بد من الصدام مع هذه القوى لأنها لا تتنازل عن دينها بسرعة فلن تتنازل أمام الدعوة الجديدة .

---

(١) سورة النحل الآية ١٠٣ .

(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٨ .

لكن هذه الآية ما كادت تنزل من السماء حتى آمن بها المؤمنون، واعتبروها وعدا إلهيا لابد من تحققه فكان أبو بكر الصديق إذا ودع جيوش الفتوحات عرفهم ما وعدهم الله من إظهار دينه ليثقوا بالنصر ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يفعل كذلك حتى وصلت دولة الإسلام فى عهده إلى نطاق لم يتوقعه أحد قبل نزول الآية الكريمة ففتح فى آخر أيامه إلى بلخ وبلاد الهند وفتح فى أيامه كذلك مرور الشاهجان ومرور الروذ كما فتح فى أيامه إلى اصطخر وكرمان ومكران وسجستان وجميع ما كان من مملكة كسرى وكل ما كان يملكه ملوك فارس بين البحرين من الفرات إلى جيحون، وأزال ملك ملوك الفرس فلم يعد إلى اليوم ولا يعود أبدا إن شاء الله تعالى ثم إلى حدود أرمينية وفتح أيضاً ناحية الشـــام والأردن وفلسطين ومصر وأزال ملك قيصر عنها وذلك من الفرات إلى مصر وغزت الخيول فى أيامه إلى عمورية(١) .

وبعد عهد عمر توالت الفتوح وتتابع إظهار الله للإسلام فى مدة وجيزة كانت مضرب الأمثال فى تاريخ الأديان والحضارة الإنسانية .

وأمثال هذا كثير فى القرآن الكريم ولعل أعجبه فى هـــذا السياق هو قوله تعالى «ألم. غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين »(٢) .

ففى الربع الأول من القرن السابع الميلادى غلب الفرس على الروم غلبة ساحقة حتى أنهم أخذوا منهم بلاد العراق والشام ومصر واستولوا على أملاكهم فى إفريقية وهددوا العاصمة القسطنطينية حتى كان الروم يرتجفون خوفا من ذلك بل إن الفرس أجبروا كثيرين من الروم على عبادة النار .

---

(١) إعجاز القرآن . الباقلانى تحقيق سيد صقر ص٣٣ ط ٣ دار المعارف بمصر .

(٢) سورة الروم ١ ، ٢ ، ٣

وقد حزن المسلمون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الهزيمة القاسية التى منى بها الروم فقد كانوا يرون أن الروم على كفرهم هم أهل كتاب ولديهم من السماء وحى منزل ، أما الفرس فقد كانوا وثنيين يعبدون النار من دون الله .

وكان مشركوا العرب يشمتون بالمؤمنين كلما انتصر الفرس على أساس أنهم وثنيون مثلهم بينما كان يدعى الرومان أنلهم نبياً وكتابا وكانوا يعيرون المؤمنين بأن الوحى والنبوة لم يغنيا عن الروم شيئاً فى مواجهة الفرس المجوس .

لكن القرآن نزل فى هذه الفترة يطمئن قلوب المؤمنين ويبشرهم بأن ميزان القوة سيتحول بعد سنين قليلة ليثأر الروم لأنفسهم ويستردوا ما اغتصب الروم منهم .

ويدرك المؤرخون أن الظروف فى بلاد الروم عندما نزلت هذه الآيات لم تكن تنبىء عما بشر به القرآن على الاطلاق وذلك فى نظر المراقب المتفحص بأقصى ما يمكن للبشر .

فقد كانت نفسية الروم بعد هذه الانكسارات المتلاحقة لا تؤهلهم لإحراز نصر قريب « فى بضع سنين » وكان هرقل — ملك الروم — نفسه حينئذ قليل الشأن محدود الموهبة ، يائساً محطماً ، غارقاً فى الملذات يرى فيها مهربا من مسئوليات جسام ليس مؤهلا للتصدى لها .

لكن الأمر سرعان ما تحول فعلا فإذا بذلك الخامل اليائس الغارق فى الملذات ، يترك لذاته فجأة ، ويهجر نساءه ، ويقود جيشاً محدوداً ليقتحم به سلسلة معارك مع الفرس سريعة ومتلاحقة ومظفرة استعاد فيها كل ماسلب منه ودخل القدس منتصراً وعاد إلى عاصمة ملكه « القسطنطينية » محاطا بقلوب شعبه الفرح المزهو به .

كل ذلك فى فـــترة وجيزة مذهلة (٦٢١ — ٦٢٧م) تماما كما جاء فى القرآن الكريم (فى بضع سنين) مما يدل دلالة قاطعة على أن منزل القرآن هو نفسه مدبر هذا الكون وهو الذى يعلم وحده الغيب(١) .

(ب) أما فيما يتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان هو نفسه دليلا على مصدر رسالته وأنه لم يخترع هذه الرسالة من تلقاء نفسه .

١ — فمحمد عليه الصلاة والسلام كبشر وصل إلى أقصى ما يمكن فى الكمال البشرى وذلك بشهادة أعدائه والمؤمنين به على حد سواء .

وقد كانت أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم تحير أعداءه وتحرجهم كثيرا . فهم من ناحية قد اتهموه بكل تهمة ولم يجرءوا على اتهامه فى خلقه كانوا يتهمونه بالسحر أو الشعر أو الجنون وغير ذلك مما هو خارج عن الطبع الانسانى ولكنهم لم يتهموه فى شىء من الأخلاق خاصة الكذب أو اختراع ما جاء به وهم الذين شهدوا له بالصدق والأمانة ولقبوه قبل أن يأتى بما جاء به « الصادق الأمين » .

ويوم وقف عليه الصلاة والسلام على جبل أبى قبيس فى أول مراحل الدعوة وجعل ينادى يا بنى فهر ، يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال « « أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى ؟ قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقا ... »

ومن ناحية أخرى لم يكونوا مرتاحين للتنازل عن أوضاعهم الجاهلية بالإيمان بما جاء به الرسول .

ونفس الحرج الشديد وقع فيه كثير من المستشرقين الذين كانوا يتعصبون

---

(١) وحيد الدين خان . الاسلام يتحدى ص ١٨٤ — ٢٠٤ ، عن ادوارد جبن . تاريخ سقوط واندحار الإمبراطورية الرومانية .

لأديانهم ومع ذلك تستولى عليهم شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام بإمكاناته وأخلاقه وبما استطاع تحقيقه مما عجز عنـــه أفذاذ الانسانية الآخرون ولذلك لم يملك البعض إلا أن يصفه بالبطولة أو العظمة أو غيرهما من أوصاف الإشادة والتمجيد ، ويجد كثير منهم الحرج عند الحديث عن صدق الرسالة فلا يسعه إلا التسليم بأنه صادق فيما يؤمن به على الأقل .

يقول الأستاذ عبد الرحمن عزام :-

« لقد سألت مرة — ونحن فى قطار فى لندرة ، أحد كبار العلماء المستشرقين . هل تظن أن محمــــدا كان يقول قولا لا يؤمن به ؟ فقال لا . إن أمرا واحدا لا ريب فيه ، وهو أنه كان صادقا مؤمناً إيماناً كاملا بما يقول ، وبما يدعوا إليه(١) » .

إن بلوغ إنسان هذه المرتبة القصوى من الكمال البشرى يدل على أنه كان إنسانا غير عادى ، وأن النبوة هى سر هذا الكمال وإلا فقد كان من الممكن أن يتكرر كل فترة من الزمن أو مرة أخرى على الأقل ، لكن تاريخ العظمة الانسانية لم تعرف بعد أحدا على مثل هذه الدرجة وإذا كان فمن هو ؟

٢ ـ كذلك كان إخبار الرسول صلى الله عليه وســـلم بكثير من الغيوب الماضية والمستقبلة دليلا آخر قاطعاً على أنه يتلقى الوحى من الله .

ذلك أن العلم بوقوع هذه الغيوب مستقبلا خارج عن قدرة الانسان ولا بد له من التلقى عن قوة غير بشرية .

---

(١) عبد الرحمن عزام . بطل الأبطال ص٧ ط٢ نشر مكتبة لبنان .

ولقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بكثير من هذه الغيوب فى الماضى والمستقبل ، ففى الماضى أخبر عليه الصلاة والسلام بما كان من قصة يوسف وأخوته مما كان يتطلب علما بما فى كتب التاريخ الأمر الذى لم يتح لرسول الله صلى الله عليه وسلم باجماع المؤرخين القدماء والمعاصرين .

ومن المستقبل أخبر عليه الصلاة والسلام بأمور وقعت كما أخبر بها من ذلك مثلا إخباره بأن الخلافة ستكون بعده ثلاثين عاما ثم تكون ملكا عضوضا وحدث كما أخبر فلم يستمر نظام الخلافه الراشدة فى عهود أبى بكر وعمر وعثمان وعلى غير الزمن الذى اشار إليه تقريبا .

ثم تحولت إلى النظام الملكى على يد معاوية رضى الله عنهم جميعا

ومن ذلك أيضا إخباره عليه الصلاة والسلام بهلاك كسرا وفتح المسلمين لمدينة القسطنطينية مع أن ذلك فى أيام إخباره كان بعيدا جدا عن عقول المراقبين للأحداث العالمين ببواطن للأمور لكن ذلك كله وقع مطابقا لما أخبر عليه الصلاة والسلام فمن أين لبشر أن يعرف أن المسلمين حينئذ سيفتحون مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية القوية والمنيعة بعد ثمانمائة وسبعة وخمسين عاما. لكنها النبوة « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى »

ج ـ كذلك من دلائل إثبات النبوة التى تتعلق بالشريعة الاسلامية أن شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت مستكملة لجميع الفضائل(١) وقد حوت الحلول الناجحة والتنظيمات الدقيقة المبدعة لكل ما يحتاج إليه البشر لم تترك شاردة ولا واردة من الحاجات البشرية إلا بينتها جميعا وفصلت وجه الحق والخير (مافرطنا فى الكتاب من شىء)(٢) :

---

(١) كتاب المقاصد. سعد الدين التفازانى . قسم السمعيات .

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٨ .

هذا فى الوقت الذى عجزت فيه كل أحلام الفلاسفة ومدنهم الفاضلة التى اختطوها عن الوفاء بالحاجات البشرية وكان فى كل منها نقص يجردها من الكمال .

د ـ ثم هناك أخيرا النصوص الكثيرة التى وردت فى كتب الأنبياء السابقين تفيد أن رسالة سيبعث رسولها فى آخر الزمان بصفاته التى كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

من ذلك على سبيل المثال(١) :

ـ فى التوراة ، جاء فى السفر الخامس ما نصه : « جاء الله من طور سيناء وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران »

كما جاء فيها : قال الله لموسى « إنى مقيم لهم نبيا من بنى إخوتهم مثلك وأجرى قولى فى فيه يقول لهم ما آمرهم به والرجل الذى لا يقبل قول النبى الذى يتكلم باسمى فإنى أنتقم منه »

ـ أما الأنجيل : فقد جاء فى الإصحاح الخامس عشر .

« وأما فار قليط ـ روح القدس ـ الذى يرسله باسمى هو جميع الأشياء وهو يذكركم ما قلته لكم ، وانى يعلمكم ويمنحكم قد أخبرتكم بهذا قبل أن يكون . حتى إذا كان تؤمنوا به »

ولا بد أن نلاحظ هنا أن ورود هذه النصوص الواضحة الصريحة عن الإسلام فى الكتب السابقة دليل مزدوج : ـ

ـ فهى تدل على صدق هذه الكتب نفسها فى إخبارها عن مجىء رسالة الاسلام بعدها كما تدل على أنها من عند الله فى أصلها وجوهرها ، لأن مجىء الأسلام ورسوله مطابقا لإخبار هذه الكتب دليل على صدق إخبارها وأن مصدرها إلهى هى الأخرى .

— كما أن هذه الاخبارات تدل فى الوقت نفسه على أحقية الاسلام لأنها أخبرت بنزوله وجاء مطابقا للأوصاف التى وردت فى الكتب السابقة فكان الواقع مطابقا للخبر .

كل هذه الأدلة — وإن كنا قد توسعنا فى ايرادها بعض الشىء — تثبت أن الدين الإسلامى من عند الله حقا وليس من اختراع البشر .

كما انها تثبت أن مصدر الدين قد يكون إلهيا وهو يبطل دعواهم فى اختراع الأديان .

وبذلك يبطل التعميم الماركسى مع كل الأديان بأنها مخترعة ومن « صنع الإنسان » .

* * *

وبعد أن أبطلنا هذه الفكرة الماركسية عن الأديان إجمالا فإننا مع ذلك سنتابع مناقشة الماركسية وهى تطبق فكرتها على الأديان السماوية الشهيرة لنبطل زعم الاختراع تفصيلا وبالنسبة لكل دين على حدة .

ذلك أن الماركسية تطبق على الأديان كلها قاعدة « أن الأديان مخترعة وهى تولد وتعيش وتموت فى ظروف تاريخية محددة وأن علاقات الإنتاج هى وحدها أساس اختراع الأديان وأساس تطورها أو أن الدين — كما يقول الأنجلز — تدولد فى عصور بدائية من تخيلات الناس الجاهلة الغامضة البدائية عن طبيعتهم وعن الطبيعة الخارجــة التى تحيط بهم أو كما يقول ماركس : « إن العجز والجهل هما المصدر المزدوج للأخلاق والدين(١) .

---

(١) مجلة الدولة والقانون السوفيتيه عدد يناير ١٩٥٠ وراجع : جهاد فلمجى . الاسلام أقوى ص ١٠٤ .

عن اليهودية :-

ففيما يتعلق باليهودية فكثيرا ماتحدث ماركس عن الحركات الدينية اليهودية التى ملأت القرن الأول قبل الميلاد وأن الباعث على هذه الحركات كان هو محاولة التحرر من السادة الأجانب البابليين والأشوريين أول الأمر ثم ورثة الأسكندر والرومانيين .

ولماركس سلسلة مقالات عن « المسألة اليهودية » يؤكد فيها الخلفية الانسانية للأديان .(١)

عن المسيحية :-

وفيما يتعلق بالمسيحية فإن الماركسية تذهب إلى أن الظروف السياسية التى عاصرت نشأة المسيحية وتطورها كانت هى المحرك لهذه النشأة وهذا التطور ،

يقول انجلز : —

« إن الاعتقاد بإله واحد فى المسيحية الذى خلف الاعتقاد بتعدد الآلهة كان نتيجة توحيد الأمم المختلفة فى الإمبراطورية الرومانية ، وأن الكثلكة تعبير عن المجتمع الإقطاعى ، كما أن البروتستانتية هى تعبير عن ظهور البورجوازية(٢)

---

(١) روجيه جارودى ماركسية القرن العشرين ص ١٥٢ .

(٢) نهاد الغادرى . حقائق الشيوعية ص ٢٣ ط ١

عن الاسلام :ـ

ولم يكن الاسلام بعيدا عن تناول الماركسية له على ضوء هذا التفسير المادى والربط بينه وبين ظروف الانتاج وعلاقاته وفى المجموعة التى أصدرتها موسكو لماركس وانجلز عن الدين نصوص رسائل متبادلة بينهما عن الاسلام يصفانه بالمحمدى (١) ٠

وفى احدى هذه الرسائل من انجلز إلى ماركس بعثها إليه فى مايو (أيار) سنه ١٧٥٣ يقول فيها :ـ

« فيما يتعلق بالفتح العربى الكبير الذى تحدثنا عنه سابقا كان البدو يقومون بغزوات دورية ، شأنهم شأن المغول ، وقد تأسست الامبراطورية الآشورية ، والامبراطورية البابلية سواء بسواء على يد قبائل بدوية فى نفس المكان الذى ظهرت فيه خلافة بغداد فيما بعد .

إن مؤسس الامبراطورية البابلية وهم الكلدان مازالوا موجودين إلى اليوم يحملون الاسم نفسه (بنى خالد) وفى المكان نفسه .

إن الظهور السريع الذى عرفته مدن ضخمة كنينوى و بابل قد حصل بالطريقة ذاتها التى نشأت بها منذ ثلاثمائة سنة فقط مدن ضخمة مثل دلهى ولاهور وموتان فى شرق الهند ، نتيجة غزو أفغانى أو تترى . وهكذا يفقد الفتح المحمدى كثيرا من طابعه المميز .

---

(١) المصدر السابق ٢٤ - ٣٠ وما بعدها

يبدو أن العرب الذين استوطنوا الجنوب الغربى كانوا شعبا لايقل مدنية عن المصريين والأشوريين وغيرهم كما يتبين ذلك من المبانى التى شادوها وهذا أيضاً يفسر لنا الشيء الكثير عن الفتح المحمدى .

وبقدر مايتعلق الأمر بهذه الصورة التى هى (الدين) ، يبدو - استنتاجا من الكتابات القديمة فى الجنوب — حيث مازال التراث العربى القومى القديم ، تراث دين التوحيد ،أهو الغالب كما هوالأمر بين الهنود الأمريكيين ، والذى لايؤلف التراث اليهودى إلا جزءاً صغيراً منه .

يبدو أن ثورة محمد الدينية شأنها شأن كل ثورة دينية كانت من الوجهةالشكلية ردة ، رجوعاً معلنانحو القديم ، نحو البسيط .

إن الكتاب اليهودى المسمى « الكتاب المقدس » ليس سوى ذكرى تقليد عربى قديم ، دينى وقبلى ،بدله انفصال اليهود المبكر عن جيرانهم الذين هم اخوانهم فى الدم ، ولكنهم من البدو الرحل .

هذا الأمر غدا واضحاً لى تماماً الآن . وأن كون فلسطين محاطة من الجانب العربى بالصحارى فقط ، أى بأرض البدو الرحل يعلل الغرض المنفصل . غير أن الكتابات العربية القديمة والقرآن والسهولة التى يمكن بها فهم الأنساب ، ذلك كله يشهد بأن المحتوى الرئيسى كان عربياً أو بالأحرى سامياً بوجه عام » .

فى هذه الرسالة يؤكد انجلز :-

— أن الاسلام لم يكن رسالة سماوية وإنما كان امتداداً للتراث العربى القومى القديم .

— أن الفتوحات الإسلامية لم تكن حركة دينية لنشر الإسلام وإنما كانت هجمات بدوية على المدن المجاورة للصحراء فى فارس والروم وأن هذه الهجمات أملتها الظروف الاقتصادية فى الجزيرة العربية حينذاك .

— أن دين محمد وفتوحاته لم تكن بدعا وإنما كانت كأى حركة تاريخية سابقة أو لاحقة وأنها لاتختلف عن حركة إنشاء الامبراطورية الآشورية أو البابلية .

وقد وافقه ماركس فى رسالة ردبها عليه فى ٢ يونية (حزيران) سنة ١٨٥٣ قال فيها :

« فيما خص العبرانيين والعرب ، عنيت برسالتك كثيراً .

وبالمناسبة :

١ — يمكن البرهان على وجود علاقة عامة منذ أن بدأ التاريخ عند جميع القبائل الشرقية ، بين توطن قسم من القبائل واستمرار حياة البداوة عند القبائل الأخرى .

٢ — فى عصر محمد ، كان الطريق التجارى بين أوربا وآسيا قد تبدل تبدلا كبيراً ، وكانت مدن جزيرة العرب التى شغلت قبل ذلك قسطاً كبيراً من التجارة مع الهند وغيرها ، كانت فى حالة من الانحطاط التجارى ، الأمر الذى أعطى دفعاً كبيراً .

٣ — فيما يتصل بالدين ، تحل المشكلة نفسها فى مسألة عامة ، وبالتالى ، فهى سهلة الجواب : لماذا يظهر تاريخ الشرق فى صورة أديان ؟ والجواب : لأن أديان الشرق هى تاريخه الاقتصادى » .

ويزيد إنجلز فكرته إيضاحا ، مبينا العوامل الاقتصادية التي أثرت على الجزيرة العربية قبل الإسلام — كما تصورها هو — وكيف كان تأثير هذه العوامل المادية البحتة على انتشار الإسلام .

وذلك في رسالة ثانية بعثها إلى ماركس بتاريخ ٦ من يونية (حزيران) من نفس السنة (سنة ١٨٥٣)حيث يقول :ـ

« إن عدم وجود ملكية الأرض هو بالحقيقة مفتاح كل أوضاع الشرق ، في هذا يكمن تاريخه السياسي والديني .

ولكن . كيف حدث أن الشرقيين لم يصلوا إلى ملكية الأرض حتى في شكلها الإقطاعي ؟

أعتقد أن مرد ذلك إلى المناخ ، موصولا بطبيعة التربة ، وبخاصة المساحات الصحراوية الكبرى التي تمتد من الصحراء الأفريقية عبر جزيرة العرب وفارس والهند وبلاد التتر ، إلى الهضبة الآسيوية العليا .

إن الري الصناعي هو أول شرط للزراعة ، وهذا عمل البلديات أو المقاطعات أو الحكومة المركزية .

وهذا الري الصناعي للأرض الذي انقطع فور تدهور جهاز الري يعلل تلك الظاهرة الغريبة وهي أن مساحات كبرى كانت في الماضي مزروعة مزدهرة قد تحولت إلى قاحلة جرداء : تدمر ، البتراء ، الخرائب في اليمن ، أقاليم في مصر وفارس وهندوستان ، وهو يعلل كيف أن حربا واحدة مدمرة تستطيع أن تقضي على سكان بلدة ما لمدة قرون ، وأن تجرده من حضارته .

هنا أيضا يأتي دور خراب تجارة الجنوب العربي قبل

محمد ، وهو العامل الذى اعتبرته بحق واحدا من العوامل الرئيسية فى الثورة المحمدية .

إننى سأدرس فى الأيام القليلة القادمة تاريخ محمد نفسه ، إلا أنه يبدو لى أن حركة تحمل طابع ردة بدوية ضد فلاحى المدن المتحضرين »

فنشوء الإسلام إذن فى رأى إنجلز كما وضحه رسالته هذه يرجع إلى تدهور نظام الرى وتحول مساحات كبرى فى الجزيرة العربية إلى خرائب وخراب تجارة الجنوب العربى ، الأمر الذى جعل محمدا يقود سكان الجزيرة الخربة فى ثورة ضد المدن المجاورة الغنية المتحضرة .

وهذا الرأى يجافى الحقيقة تماما لأنه بعيد جـــدا عن روح التاريخ الإسلامى وواقعه .

أولا . . . لو كانت نشأة الإسلام بسبب الثورة من أجل الخبز فقط أو خروج العرب الجائعين الفقراء المتعطشين إلى الحضارة والثروة فى هجمة ضد المدن المجاورة التى تجمع الثروة والحضارة ، لكان معنى ذلك أن يقبل العرب بمجرد امتلاكهم لهـــذه المدن على الثروة والحضارة وينغمسوا فى الاستمتاع بملذات الدنيا التى حرموا منها فى بيئتهم الخربة والتى ثاروا من أجلها وذلك بمقتضى الطبيعة البشرية عندما تحصل على شىء حرمت منه لكن الذى حدث كان عكس هذا تماما .

فبالرغم من امتلاك المسلمين لمدائن الفرس والروم ، وحصولهم على الحضارة فإنهم لوحظ عليهم الاستعلاء على هـذه الحضارة والزهد فى المتع الدنيـوية .

بل إن جيل المجاهدين المسلمين الأوائل كانوا هم أكثر زهدا وأقل

إقبالا على المتع الدنيوية ، كانوا مرابطين مجاهدين لاتعنيهم الحياة الدنيا بمتاعها بقدر ما يعنيهم نشر دين الله وإعلاء كلمته .

ويكفى استعراض حياة هؤلاء وتاريخهم لنتأكد من ذلك تماما .

ولو أن نشأة الإسلام كانت ترجع إلى الثورة من أجل الخبز والاستمتاع بالحضارة لما وجدنا فى الإسلام نهيا عن الانغماس فى هذه الحضارة والشبع من لذاتها لأنه لا يتأتى أن يأخذ محمد العرب إلى خارج الصحراء فى ثورة على المدن المتحصرة من أجل الخبز والحضارة ثم يحرمهم منهما لكننا نجد العكس من ذاك إذ نهى الإسلام عن الترف المفسد والأسراف فى تناول الحضارة وملذاتها كما نجد التحذير من ذلك يصل إلى حد ربط الترف بالهلاك وجعله سببا لخراب الممالك ودمار الأمم يقول تعالى : ـ

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا(١) » .

كما يقول تعالى : ـ

« وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم . وظل من يحموم . لابارد ولا كريم . إنهم كانو قبل ذلك مترفين(٢) » .

ولئن كانت الحضارة الإسلامية فيما بعد قد شهدت نوعا من الترف حيث عاش المسلمون فى بعض عهود التاريخ الإسلامى خاصة العهد العباسى حياة مترفة فإن هذا الترف : ـ

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٧ .

(٢) سورة الواقعة ٤٩ .

- بدأ - غالبا - بين الأعاجم أهل المدن المتحضرة أنفسهم ثم أثر بعد ذلك فى الحياة الاجتماعية الإسلامية .

- كما كان هـذا الترف انحرافا عن طبيعة الإسلام ولو كانت هجرة البدو من الصحراء إلى المدن المتحضرة هى أساس نشأة الإسلام لما كان هـذا الترف انحرافا وإنما كان مسموحا به كهدف لنشأة الإسلام .

ثانيا . : ماذا عن أهل البلاد المفتوحة .

كيف استقبلوا الإسلام ؟

إن تطبيق الفكرة الماركسية على هؤلاء يشعر بأنهم عارضوا الإسلام وقاوموا انتشاره بينهم إذ ما دام الأمر غزوا حضاريا يهدف إلى استيلاء البدو على خيراتهم « ومدنهم المتحضرة » فلا بد لهم من معارضة هذا الغزو ومقاومة هؤلاء الغازين من حرب الصحراء وفقرها إلى شبع هذه المدن وحضارتها .

لكن شيئا من ذلك لم يكن، بل عكسه هو الذى كان، فلم تحدث معارضة من قبل الشعوب التى دخل إليها الإسلام وإن كان قد حدث شىء من ذلك فمعارضات طفيفة يائسة من قبل بعض الحكام الذين اندفعوا بطبيعة الحال دفاعا عن مصالحهم الذاتية فى الحفاظ على السلطة . ذلك أن المسلمين بمجرد فتحهم لهذه المدن سرعان ما تعرف أهلها على الإسلام والمسلمين واقبلوا على الدين الجديد طواعية وعن رغبة وأخذوا من العرب زمام المبادرة فى الدفاع عن الإسلام ونشره فى العالم وأقبلوا على لغته يتعلمونها وعلى كتابه يحفظونه ويخدمونه بمؤلفاتهم حوله بحيث يقال بحق إن العرب أوصلوا الاسلام إلى الأجناس الأخرى التى تولت هى بعد ذلك نشر ثقافته والحفاظ على تراثه

ويكفى أن نتذكر أن أعلام الفكر الإسلامى الذين أدوا أهم الأدوار فى الحفاظ على الاسلام هم من غير العرب مثل البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وغيرهم .

ولقد ظل الاسلام فى البلاد المفتوحة باقيا وقويا حتى بعد أن ضعفت الحكومات العربية وبعد أن انتهت عصور الفاتحين المسلمين الأوائل الذين جاءوا من الجزيرة العربية ، ولو أن أهل هذه البلاد كانوا قد شعروا للحظة واحدة أن الاسلام القادم عليهم من الجزيرة ما هو إلا هجمة بدوية تريد الاستيلاء على ما لديهم من خيرات لما أخلصوا لهذا الدين ابداه ولتخلصوا منه بمجرد أن تحين لهم فرصة .

ولئن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن الفاتحين المسلمين لم يقصدوا إلى المغانم المادية ولم تدفعهم الرغبة فى الحضارة فى هـذه البلاد كما يدل دلالة قاطعه على فساد الفكرة الماركسية فى أن العامل الاقتصادى وجدب الصحراء هو الذى دفع محمدا والعرب إلى نشر الإسلام .

ثالثا . . لو أن العامل الاقتصادى هو السبب فى ظهور الإسلام وانتشاره لعمد المسلمون بمجرد امتلاكهم المدن المتحضرة إلى نهب ثرواتها ونقل ما فيها من خيرات إلى صحاريهم القاحلة كما فعلت حركة الاستعمار فى العصر الحديث مع البلاد المستعمرة . أو كانوا على الأقل يغيرون طبيعة البلاد المفتوحة وخططها الاقتصادية لتتمشى مع عزمهم فى استعمار البلاد واستنزافها .

لكن أولئك الفاتحين لم ينهبوا ثروة أو يغيروا من طبيعة الاقتصاد فى بلد مفتوح بل كانوا يتركون كل شىء على ماهو عليـــه الزراع

فى زراعته والتاجر فى تجارته وكل ذى مهنة فى مهنته .

ولم يكن الخراج أو الجزية إلا نزار يسيراً فى مقابل ماكانت الدولة الإسلامية تؤديه لأهل هذه البلاد من كفالة الأمن واستقرار الأوضاع وغير ذلك من الخدمات .

وكان المسلم فى هذه البلاد يتحمل أكثر مما يتحمله الذمى ، فى الوقت الذى كان المسلم يدفع كل عام نسبة مئوية ٥ر٢٪ هى ربع العشر من ماله الذى يحول عليه الحول زكاة لهذا المال لم يكن الذمى يدفع إلا مقداراً ضئيلا (حوالى درهمين وربع درهم) هو قدر الجزية . وكان يعفى منها العاجز عن أدائها إذ يعفى المساكين والنساء والأطفال والمرضى(١) العاجزين عن الكسب بل كانت الدولة الإسلامية تعطى لفقراء أهل الذمة وعجزتهم من زكاة أموال المسلمين .

فهل يتفق هذا السلوك مع ماتزعمه الماركسية من أن الغرض الأساسى لانتشار الإسلام كان هو جمع الثروة والمال ؟

بل بلغ الأمر بالمسلمين إلى درجة أنهم كانوا يردون الجزية إلى أهل الكتاب عندما يرون أنفسهم لايقدمون خدمة الدفاع عن أهل الذمة وكفالة الأمن لهم كما حدث عند ماردت الجزية إلى أهل حمص حين اضطر المسلمون إلى تركها لانشغالهم بموقعة اليرموك(٢) .

---

(١) الخراج . لأبى يوسف ص٦٩ أنظر د . عبد الحميد متولى . الإسلام ومبادىء نظام الحكم فى الماركسية والديمقراطيات الغربية ص ٣٣١ .

(١) المصدر السابق نفس الصحيفة .

وكانت الجزية تسقـــط عن الذمى القادر بمجرد اشتراكه فى الجيش الإسلامى(١) .

والغريب أن انجلز عرف من دراسته للإسلام أن المسلمين لم يحدثوا أى تغيير فى اقتصاد البلاد المفتوحة ومع ذلك لم يفهم دلالات ذلك وحاول أن يوجه معناه إلى وجهة أخرى تخيل أنها تتفق مع اعتسافه فى تحكيم العامل المادى على كل مراحل التاريخ ، وحلقات الدين .

جاء ذلك فى رسالة بعثها إنجلز إلى ماركس قال فيها :

« إن الإسلام دين متلائم مع سكان الشرق ولا سيما العرب أى من جهة سكان المدن العاملين فى التجارة والصناعة ومن جهة أخرى البدو الرحل ، هنا تكمن بذرة صدام يتكرر دورياً فسكان المدن يزدادون غنى ويأخذون تراخياً فى تطبيق الشريعة .

أما البدو الذين هم فقراء ، وبالتالى ذوو أخلاق صارمة فإنهم يتأملون بعين الغيرة والطمع هذه الثروات والملذات ، ثم يتحدون بزعامة نبى أو مهدى لمعاقبة الكفار ، وإعادة وصيانة الطقوس والإيمان الصحيح ، واقتناء كنوز المرتدين كمكافأة . وبعد مضى مائة سنة يصبحون بطبيعة الحال فى وضع هؤلاء المرتدين وتظهر الحاجة إلى تطهير جديد للإيمان ويظهر مهدى جديد وتتكرر العملية .

كل هذه الحركات ترتدى لباس الدين . ولكنها تنبع من أسباب اقتصادية ومع ذلك فهى حتى حين تحرز النصر تتيح للشروط الاقتصادية القديمة الاستمرار دون أن ينالها مساس .

وهكذا تبقى الحالة بلا تغيير ويعود الصدام دوريا .

---

(١) المصدر السابق نفس الصحيفة .

أما فى الانتفاضات الشعبية فى الغرب المسيحى ، فبالعكس لبس اللباس الدينى سوى راية أو قناع لهجمات تشن على نظام اقتصادى آخذ فى الاضمحلال وتنتهى الأمور إلى سقوط هذا النظام ، وقيام نظام جديد .

وهكذا يتقدم العالم »

وهكذا يصر إنجلز على أن الإسلام نشأ من طمع البدو فى المدن وارتدائهم لباس الدين للاستحواذ على مافيها من ثروة ومع ذلك يذكر أن هؤلاء البدو عندما كانوا يستولون على هذه المدن لايغيرون فيها شيئاً ، ويبقون على نظامها كما هو ، دون أن يفسر لنا : لماذا لم يغير هؤلاء النظام الاقتصادى لهذه المـــدن لصالحهم بقطع النظر عن مصالح أهل البلاد الأصليين .

إذا كان تفكير هؤلاء البدو قد هداهم إلى اختراع الدين وارتداء لباسه ليسيطروا باسمه على هذه البلاد ، أفلم يهدهم إلى تغيير النظام الاقتصادى إن كان فى نيتهم مجرد الاستيلاء على خيراتها ؟

إنه الاعتساف ، والخطأ فى تفسير التاريخ .

وقد علق الفيلسوف البريطانى « برتراندرسل » على هذا التفسير المادى بقوله : ـ

« إن إيمان ماركس بأن جميع حوادث التاريخ قد نتجت من نزاع الطبقات هو اعتقاد طائش ، وقياس غير صحيح ، استمد قواعده من بعض المظاهر البارزة فى تاريخ انكلترا وفرنسا قبل مائة عام ، وحاول أن يطبقه على تاريخ العالم بأسره .

أما اعتقاده بوجود قوة عالمية ثابتة ودائمة تسمى « المادية التاريخية » ، وأن هذه القوة تسيطر على تاريخ البشر وتعمل

بصورة تلقائية بعيدا عن إرادة الناس ورغبتهم ، فهو مجرد اعتقاد خيالى(١) .

ويناقش « دوجلاس وودارف » الماركسية فى ادعائها أن الدين إنما يخترعه البشر . وأنه كلما تطورت الأحوال الاجتماعية وتحسنت لايبقى هناك مجال لأى وهم دينى » فيقول : ـ

« لو صدقت هذه النظرية فإنه كان من المتوقع أن يضمحل الدين فى روسيا بنفس النسبة التى تتحسن بها أحوالها ، غير أن شيئا من هذا لم يحدث »

ويفند « وودارف » ماقد يقال فى هذا الصدد من أن السنوات الثلاثين الأولى كانت الشيوعية تعانى فيها من المصاعب والمشقات من أجل تطور رأس المال ، بأن هذه ليست أعذاراً مقبولة ويورد اعترافا للينين يقول فيه:

« إن مسألة الدين يجب أن تعالج بطريقة جدية أعظم . وأنه يستحيل التخلص من الدين بمجرد الزعم بأنه خرافات الفلاحين أو الطبقة الفاسدة من موظفى الحكومة) (٢) .

وأخيراً . . لقد أراحنا « إنجلز » نفسه فى هذا الموضوع ؛ إذ أعلن تراجعه عن أن التفسير المادى هو كل شىء وهو المفتاح لكل مغاليق الأمور حين قال :

« إنه على حسب الإدراك المادى للتاريخ ، يكون العامل الفعال فى اللحظة الأخيرة عامل الإنتاج والتثمير فى الحياة

---

(١) الماركسية فى أبعادها المختلفة . راسل ووودارف وآخرون ص ١٠ ط دار الكاتب العربى بيروت .

(٢) المصدر السابق ص ٤٩

الواقعية ، وماحدث قط من « ماركس » ولا منى أننا قررنا غير ذلك ، ولكن الذي يحاول أن يجعل العامل المادى وحده فعالا فى التاريخ يخرج بالعبارة من معناها إلى كلام مجرد بغير معنى .

... فالعامل المادى هو المهم فى الأساس ولكن العوامل الأخرى السياسية من دساتير وشرائع ومؤثرات ذهنية ونظريات فلسفية وعقائد دينية ، كلها تسيطر على منازعات التاريخ وتقرر أشكالها فى كثير من الأحيان»(١) .

وزاد إنجلز هذا الاعتراف وضوحا وحسما فى رسالة بعث بها إلى (بلوخ) فى ٢١ من سبتمبر (أيلول) سنة ١٨٩٠ م قال فيها :

(إنه على ماركس وعلىّ أنا يقع بعض التبعة فى توكيد العوامل الاقتصادية وإعطائها فوق ماتستحقه من التقدير .

وقد كنا أمام حملات خصومنا مضطرين إلى توكيد المبدأ الأصيل فى دعوتنا ، لإنكارهم إياه ، ولم يتسع لنا الوقت كل حين ، لإبراز العوامل المتعددة »(٢) .

وليس هذا فحسب بل إن انجلز ينهى المسألة تماما فيوالى اعترافاته بشكل أوضح من كل ماسبق ، حين يقول فى سياق نقده لما كتبه « ماركس » عن (الصراع الطبقى فى فرنسا) : -

---

(١) رسائل انجلز التى نشرت فى أكتوبر سنة ١٨٩٥م .
أنظر : عباس العقاد : الشيوعية والانسانية ص ١٠٤ نشر دار الكتاب العربى بيروت .

(٢) المصدر نفسه نفس الصحيفة .

« لقد أثبت التاريخ أننا كنا وكان الذين يفكرون مثلنا مخطئين(١) » :

وأعتقد أن هذا الاعتراف الأخير كاف فى إنهاء قضية تعليق كل الأحداث على التفسير المادى وحده وتعليل نشأة الأديان وتطورها بظروف الإنتاج دون غيرها من العوامل الأخرى .

ولا يحتاج هذا الاعتراف إلى تعليق .

غير أن لنا ملاحظة بسيطة هى : يتبين من متابعة التواريخ التى كتب فيها أنجلز رسائله أن هذا الاعتراف جاء بعد حوالى أربعين سنة من الدراسة وتبادل الرأى فى مسألة أثر المادية التاريخية وتعليل نشأة الأديان وتطورها بالمنطق المادى ومحاولة إثبات أن الأديان مخترعة وأوهام مزورة. دون جدوى طيلة أربعين عاما (١٨٥٣ — ١٨٩٠ م) :

وهو جهد ثقيل ، وعمر طويل ، لكن ما أضيع تلك الأعمار التى تضيع سدى ، فى الجرى وراء الأباطيل ! !

ولعل فى ذلك عبرة المتمركسين من إخواننا ، ومواطنينا حتى لا يضيعوا أعمارهم ، إن كانوا لا يريدونها أعمارا رخيصة ، يزين لهم الشيطان استهلاكها فى الباطل .

نقول بكل حرص عليهم . . لعل وعسى . ! !

---

(١) يوسف كمال محمد . مستقبل الحضارة بين العلمانية والشيوعية والإسلام ص ٥٥ ط ١ .

الفصل الثالث

هل الدين أفيون؟

بعد أن ناقشنا الماركسية فى ركيزتيها الأوليين .

١ ــ المادة أزلية .

٢ ــ الدين مخترع .

نكون قد وصلنا إلى مناقشة الركيزة الثالثة وهى .

ــ زعم الماركسية بأن الدين أفيون الشعوب .

وقد قالها ماركس صريحة :

« الدين أفيون الشعوب ، والدين وعى مزور عن العالم (١) » .

كما قال لينين :

« الدين يعلم هؤلاء الذين يكدحون طول حياتهم فى الفقر ، الاستسلام والصبر فى هذه الدنيا ، ويغريهم بالأمل فى المثوبة فى العالم الآخر » (٢) .

فالدين عند الماركسية إذن ابتداع : ابتدعه الطغاة ليعتمدوا عليه فى تحقيق سيطرتهم على الضعاف والفقراء ، كما شارك فى ابتداعه الأغنياء ، ليلهوا به

---

(١) مجلة « الدولة والقانون » السوفيتية عدد يناير ١٩٥٠ .

(٢) المصدر السابق .

الفقراء ويرضوهم بنعيم الآخرة الذى يعدهم به الدين ليتفرغ أولئك الطغاة والأغنياء للدنيا وإحراز الثروات فيها .

ومن شأن الدين على أساس هذه النظرية الماركسية أن يعجز أصحابه عن كل عمل منتج ، وأن يقعد بهم عن القيـــام لحقوقهم وإنصاف أنفسهم وكرامتهم .

وفى مناقشتنا لهذه الفكرة نسأل :ـ

أى دين تقصده الماركسية ؟

أى دين يخدر الناس كالأفيون ويصرفهم عن العمل والإنتاج ، ويهدهد مشاعرهم بتخيل الفردوس الأخروى ويطلب إليهم البعد عن السعى إلى الرزق وكافة الحقوق ويحبب إليهم العبادة والنسك المجردين ، والخضوع للمذلة تجاه الأقوياء ؟

إن الواضح من متابعة أفكار الماركسيين فى هذا الصدد أنهم يقصدرن الأديان جميعا ، لايفرقون بين دين ودين بل يقصـــدون أيضا نزعة التدين ذاتها .

والمنهج العلمى هنا كان يحتم لإطلاق حكم عام كهذا على الدين أن يستقرىء الباحث جميع الأديان حتى يتسنى له إطلاق حكم كلى عليها على ضوء مبادىء كل دين على حدة ، وأثر هذه المبادىء فى الواقع .

والاحتمالات الواردة فى هذا الصدد :ـ

ـ إما أن ماركس استقرأ فعلا جميع الأديان ـ كلا ، على حدة ـ كما يشترط المنطق ، ففهم مبادئها وواقعها التاريخى ، ورصد آثار المبادىء فى تاريخ

الأديان وأهلها وخرج من دراسته تلك بأنها كانت مخدراً للشعوب المتدينة وصارفا لها عن الحركة التقدمية».

— وإما أنه لم يستقرىء جميع الأديان ، ولم يدرس مبادئها وتاريخها ، وإنما اكتفى بدراسة دين واحد أو دينين ، ثم أطلق الحكم عليها جميعاً بأنها كانت مخدراً للشعوب .

ويبدو أن الذى حدث هو ذلك الاحتمال الثانى ، فمعظم كتابات الماركسيين تقع فى خطأ التعميم فى مسألة الدين وغيرها من المسائل .

والظاهر أن الحالة الوحيدة التى اقتصر عليها ماركس فى دراسته للدين هى القرون الوسطى فى أوربا قبيل عصر النهضة ، حين امتزجت بقايا المسيحية المحرفة بالأفلاطونية الحديثة على أيدى رجال الدين الذين احتكروا قراءة الكتب المقدسة وتفسيرها ، وحظروا على الناس محاولة فهم الوحى وفرضوا عليهم آراء الكنيسة على أنها الوحى المنزل الذى لا يجوز الخروج عليه بحال من الأحوال وساندوا سلطة الاستبداد وقاسموا الملوك الطغاة ، الثراء والضياع الواسعة ، خاصة تلك الضياع التى كانوا يجبونها من بيع صكوك الغفران ، وكان كل ذلك على حساب الكادحين من عامة الناس (١) .

تلك هى الحالة الوحيدة ، وربما فى التاريخ البشرى كله ، التى يصدق عليها قول ماركس أن الدين اتخذ سوط عذاب للضعفاء بيد السلطة ورجال الدين .

والخطأ بعد ذلك فى التعميم على المسيحية فى جميع فترات تاريخها ، وعلى الأديان كلها بعد ذلك ، خاصة الاسلام .

---

(١) راجع د . توفيق الطويل . قصة النزاع بين الدين والفلسفة . الفصل الخامس والسادس والسابع . وراجع أيضاً اندريه كريسون . تيارات الفكر الفلسفى من القرون الوسطى حتى العصر الحديث .

ولو أن ماركس درس الأديان جميعاً واستقرأ مبادئها وواقعها ثم خرج من هذه الدراسة بهذا الحكم العام الشامل فهو أحد رجلين : مخطىء أو مغالط .

ذلك أن ثمرة الأديان كلها وآثارها على الضمائر البشرية ودفعها أتباعها إلى الثورة على الظلم ، ومقاومتها للفساد الروحي والمادى ، لاتخفى على دارس مخلص ، فضلا عن فيلسوف يزعم لنفسه الفكر والتنظير الذى لايخطىء أبدا ويسفه غير تفكيره من مذاهب المفكرين فى الأرض ، ورسالات الرسل المنزلة من السماء . مما يجعلنا نعتقد أن ماركس كان مغالطا فى تصويره للأديان ، مدعياً سلوك المنهج العلمى — دون حق — فى هذا التصوير .

والدليل على أن ماركس والماركسيين مغالطون مدعون فى هذه القضية إنما نأخذه من مبادىء وواقع الأديان الشهيرة التى كان على ماركس أن يتناولها — على الأقل — بالدراسة المنصفة المتأنية قبل إطلاق حكمه ، وهى : اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام .

فبالنسبة لليهودية :

لن نعمد إلى معلومات خفية ، أو مراجع مختلف عليها ، بقدر ماتورد هنا معلومات موثقة تضمنتها كتب الأديان جميعاً عن حادث الخروج من مصر ، والأمر بالدخول إلى الأرض المقدسة إذ كانت تعاليم اليهودية لبنى إسرائيل ، صريحة فى أمرهم باقتحام الأخطار ، واستسهال الصعاب بعد أن خرجوا من مصر ليدخلوا الأرض المقدسة التى كان الله قد كتبها لهم ـ إن دخلوها ـ .

وفى هذه القصة كان يمكن لماركس أن يكتشف مايسميه « العامل الثورى » فى اليهودية ، ذلك العامل الذى يدفع بنى إسرائيل دفعاً إلى أن يثوروا

على الاستبداد ، وينتزعوا حريتهم انتزاعا من الفراعنة ، ولكنهم هم الذين جبنوا ورضوا بالتيه فى الصحراء خوفا من الجبارين الذين كانوا يسكنون الأرض المقدسة آنذاك .

فهل يمكن أن تسمى ملة كهذه — أو ثورة إن صح التعبير — بأنها كانت نوعاً من الأفيون .

هذا عن اليهودية !

أما المسيحية :

فحسبنا ما قرره « إنجلز » و« لينين » فى بعض كتبهما عن أثر الدين المسيحى على المسيحيين ودفعهم إلى الثورة واستخـــلاص حقوقهم من الأباطرة الرومان .

فأنجلز « يتحدث عن مثالين فى تاريخ المسيحية (١) :-

المثال الأول: عن « الجماعات المسيحية الأولى ، وكيف كانت هذه الجماعات عنصراً ثورياً ، ويقول انجلز إن هذا أمر واضح إذ أن السلطات العامة كانت من خشيته بحيث نظمت ضده اضطهاداً وحشياً ؛ اضطهادا لا يرجع إلى أسباب دينية فحسب ، بدليل أن العبادات الأجنبية الأخرى كانت كثيرة ومسكوتا عنها .

المثال الثانى « حركة توماس منذر » فى القرن السادس عشر ، ويذكر أنجلز أن الإيمان فى هذا القرن كان يلبس ثوب النضال وقد تحول بقيادة

(١) روجيه جارودى . ماركسية القرن العشرين ص ١٤٧ ط ٣ .

«توماس منذر» إلى تمرد مسلح يهدف إلى تنفيذ مشيئة الله على الأرض كما هى فى السماء .

ويقول أنجلز إن المتمردين كانوا يطلبون أن يعترف بظروف المساواة التى شهدتها المسيحية الأولى ،فتصبح قواعد مرعية فى المجتمع ، مستنتجين من تساوى البشر أمام الله تساويهم أمام القانون ،مع بداية من القول بتساويهم فى الثروات (١) .

يقول روجيه جارودى : ـ

«وتحليل أنجلز هذا فى خطوطه الجوهرية ، أيدته البحوث والاكتشافات التى حققت تقدما هائلا بشأن أصول المسيحية ، ولاسيما منذ اكتشاف مخطوط البحر الميت عام ١٩٤٧ م »(٢) .

أما «لينين» فيتحدث فى كتابه «الدولة والثورة» عن الروح الثورية الديمقراطية لدى الجماعات المسيحية الأولى ايضاً ، وأن أثر المسيحية الأولى لم يتحول إلى كونه أفيونا إلا بعد أن اختلطت بالأفلاطونية الحديثة ، وبعد أن ضعفت هذه الجماعات عن مقاومة السلطان الرومانى(٣) .

وبناء على كلام «إنجلز ولينين» وتحليل «روجيه جارودى» لموقف كل من الرجلين لاتكون المسيحية إذن فى كل عهودها أفيـــونا بحيث يصح التعميم بأن ذلك الدين أصلا أو فى كل مراحله أفيون ، فضلا عن أن تكون الأديان كلها بهذه المثابة .

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٤٨ .
(٣) المصدر السابق نفس الفصل (الماركسية والدين) .

وإذا كان موقف الماركسية إزاء اليهـــودية والمسيحية بهذا الضعف والتهافت فإنها بإزاء الإسلام أكثر ضعفاً وتهافتاً ، لأن مبادىء الإسلام ، وواقعه التاريخى تطبيقاً لهذه المبادىء يرفض أى اتهام له بأنه كان فى أى مرحلة من مراحله أفيونا للمسلمين .

(ا) فمبادىء الإسلام تغرس فى نفس المسلم أنه مسئول دائماً عن تحصيل نصيبه من الدنيا . يقول تعالى :-

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا » (١) .

وفى الحديث الشريف : ـ

« لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو به إلى الجبل ، فيحتطب فيبيع ، فيأكل ، ويتصدق خير له من أن يسأل الناس » (٢) .

٢ ـ والطريق إلى أن يؤدى المسلم مسئوليته فى دنياه نحو رزقه ورزق من يعولهم هو أن يسعى بجد فى تحصيل رزقه ، وألا يتوانى عن عمله ، يقول تعالى :-

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » (٣) .

ويقول سبحانه :-

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل

---

(١) سورة القصص الآية ٧٧ .
(٢) متفق عليه
(٣) سورة الملك الآية ١٥ .

واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » (١).

٣ — بل إن الإسلام ذهب إلى تمجيد العمل إلى حد أن اعتبره عبادة يراها الله من عبده فيثيبه عليها على قدر إحسان العمل وتجويده ولا يضيع عند الله عمل عامل يقول تعالى :ـ

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » (٢) .

وقال عز وجل :ـ

« ... أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض »(٣) .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ـ

طلب الحلال فريضة بعد الفريضة (٤)

كما قال : ـ

« يحب الله العامل إذا عمل أن يحسن »(٥) .

٤ — وبالإضافة إلى أن العمل عبادة فهو الطريق إلى حياة دنيوية طيبة في مفهوم القرآن ، قال تعالى : ـ

---

(١) سورة الجمعة الآية ٩

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٥ .

(٣) آل عمران الآية ١٩٥ .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط .

(٥) رواه الطبراني

« من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ولنجزنهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »(١) .

٥ — والعمل في مفهوم الاسلام أيضاً ، هو الذي يعطي للحياة لذتها ومعناها الحقيق ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :—

« ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده »(٢)،

٦ — والإسلام يخفف من تكاليف العبادة لله عند الضرب في الأرض ابتغاء الرزق ، أو ابتغاء الأعمال الكبيرة الجادة في الحياة ، يقول تعالى :—

« وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا »(٣) .

٧ — وإلى جانب هذه المواقف الإسلامية الدافعة إلى العمل والجد فإن للإسلام مواقف أخرى مانعة للمسلم من التبطل والاستسلام للفقر ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :—

« إذا قصر العبد في العمل ابتلاه الله بالهم(٤) » .

كما يقول :—

« مايزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم(٥) » .

---

(١) سورة النحل الآية ٩٧ .

(٢) رواه البخاري

(٣) سورة النساء الآية ١٠١

(٤) رواه أحمد .

(٥) متفق عليه .

٨ — كما كان عليه الصلاة والسلام يعتبر الجبن والبخل والعجز والكسل والدَّين أوبئة خطيرة وكان يستعيذ بالله كثيراً منها ويعلم أصحابه أن يستعيذوا بها كذلك ، روى أبو داود أن الرسول علم أبا أمامة أن يقول: ـ.

« اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من البخل والجبن ، وأعوذ بك من غلبة الدَّين وقهر الرجال(١) » .

٩ — والإسلام نهى عن أن توجد فى المجتمع طبقة تجحد أجور العمال ، أو تأكل أموال الناس بالباطل ، أو تستبد ، أو تحتكر لتستكثر من المالّ بطرق غير مشروعة ، قال تعالى : ـ

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون(٢) .

وقال سبحانه : ـ

« الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»(٣)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ـ

« أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه(٤) »

---

(١) رواه أبو داود .
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٨ .
(٣) سورة البقرة ٢٧٥ .
(٤) رواه ابن ماجه .

كما قال عليه الصلاة والسلام :ـ

ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، من كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره(١) .

كما قال عليه الصلاة والسلام :ـ

« الجالب مرزوق والمحتكر ملعون(٢) » .

كما قال :ـ

« من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برىء من الله ، وبرىء الله منه(٣) » .

وقال :

« من احتكر طعاما فهو خاطىء(٣) » .

١ ـ فإذا حدث أن أساءت طائفة أو أساء فرد من الحكام أو الأغنياء إلى الفقراء ولم يلتزم بما أمر الله به مما رأينا فإن الإسلام هنا يهيب بالمؤمن ألا يتوانى عن طلب حقه أو يسكت عن هذا الحق إزاء قوى ينتزع هـذا الحق منه ، فليس فى الاسلام صبر على الظلم أو الظالمين واستكانة لهم لأنه لاينبغى أن يذل لغير الله ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :ـ

« لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق(٥) » .

---

(١) رواه البخارى وابن ماجه وغيرهما .
(٢) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم .
(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه .
(٤) رواه أحمد .

يقول تعالى : ـ

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا(١) » .

والهجرة هنا لاتكون إلا بعد استنفاد الجهد والوسائل فى مقاومة الظلم والاستبداد فينتقل الإنسان إلى وسيلة أخـــرى من وسائل المقاومة من خارج موقعه الأول فهى ، استمرار المقاومة .

١١ — ولابد أن يذكر هنا حق الفقراء المعلوم على القادرين وشرعية استخلاص هذا الحق من مانعيه . . وأداء الزكاة ركن من الدين قاتل أبو بكر المرتدين من أجله حين امتنعوا عن أدائه .

قال تعالى :

« وفى أموالهم حق للسائل والمحروم(٢) » .

(ب) أما واقع المسلمين المتأثر بهذه المبادىء فكان آية واضحة على فساد الزعم المـاركسى بأن الدين أفيون الشعوب .

فمجتمع الصحابة الذى كان تطبيقاً حيا وأمينا للمبادىء الإسلامية كان مثالا ظاهر الدلالة على رفض هؤلاء لمبادىء الوثنية وضلالاتها ، وثورتهم على طغاة قريش حتى وهم مهاجرون إلى المدينة وقد تركوا أموالهم وديارهم .

وإذا احتكمنا إلى التفسير المادى للتاريخ (وهو المنهج المحبب لدى الماركسية) فإننا نجد أن هؤلاء الذين تخلوا عن كل مالهم فى مكة ، ووقفوا

---

(١) سورة النساء الآية ٩٦ .

(٢) سورة الذاريات ١٩ .

فى دار الهجرة الجديدة أمام تكاليف الحياة وجها لوجه ، كانوا فقراء معدمين ، وكان الأنصارى يعرض على أخيه المهاجر أن يتنازل له عن بعض ماله ، فيرفض المهاجر أحيانا شاكرا قائلا له : « دلنى على سوق المدينة » ولم تمض غير فترة قصيرة حتى حول المهاجرون الفقر إلى غنى والضعف إلى قوة .

فأين المخدر الذى خدرهم فى الإسلام إذن ، إن تمشينا مع النظره الماركسية إلى الأديان ؟

كذلك إذا احتكمنا إلى التفسير المادى للتاريخ مرة أخرى فإننا نرى أن تاريخ العرب قبل الإسلام يمتلىء بمآسى الفرقة والحروب الضروس التى كانت تنشأ بين القبائل كما هو مشهور لأوهى الأسباب ، كما يمتلىء بأقاصيص الضعف وضآلة شأن العرب بين دول العالم القديم .

ولما جاء الإسلام ، كان مقتضى الفكرة الماركسية أن يزداد هؤلاء ضعفا على ضعف بسبب التخدير (المزعوم) فى الأديان ، لكن العرب ما أن اشربت قلوبهم مبادىء الإسلام وتعاليمه حتى تبدل شأنهم وتغيرت حالهم من النقيض إلى النقيض فإذا بهم قد توحدوا وقوى شأنهم وحملوا هذه المبادىء بهمة ونشاط لا مثيل لهما إلى آفاق العالم كله بحيث أدهشت حركة الفتوحات الإسلامية عقول الناس وقلوبهم حتى اليوم وأجمعوا — حتى الماركسيين — على اعتبارها أروع حركة دينية فى التاريخ الإنسانى كله .

ومرة أخرى نسأل : — أين المخدر الذى خدر هؤلاء فى الإسلام ؟

بل أين المخدر فى أى دين ؟

إن الباحث المنصف لابد أن يدرك الأثر الإيجابى للدين ولا يسعه إلا أن يقدر دوره فى خدمة الحياة وترقيتها ، حتى الأديان الوضعية الباطلة .

وأعتقد أن أحداً لا ينكر أثر البوذية والبراهمية رغم بطلانهما ـ فى مفهوم الإسلام ـ فى تأكيد بعض القيم الإنسانية النافعة التى جاءت بمزيد منها وتصحيح لها الأديان السماوية ، بحيث يمثل الدين عاملا ضروريا للحياة الإنسانية فى كل مراحل تطورها وفى المرحلة الحاضرة بوجه خاص .

ففى المرحلة الحاضرة من تاريخ الإنسانية .. فشلت النظم الوضعية المادية فى تنظيم حياة البشر وتوفير الاستقرار الخلقى والنفسى والاجتماعى ، إلى جانب الرخاء المادى الذى لم يعد وحده كافياً لتحقيق الحياة الإنسانية الطيبة المطمئنة ، لأن هذه النظم المادية المعزولة عن الدين لا تعنى إلا بالجانب المادى فقط ومن ثم لم يعد أمل إلا فى الدين لأنه يعنى بالاستقرار الروحى الذى يفتقده العالم بالإضافة إلى عنايته بالجانب المادى .

هذا على النطاق العالمى .

أما فى الشعوب النامية : فإن الدين بات عاملا ضروريا لنجاح مخططات التنمية،إذ هو يمثل الدافع الحقيقى الكامن فى فطرة هذه الشعوب منذ قرون طويلة ، وهو القادر على أن يحمل العامل يبذل أقصى طاقتـــه فى الإنتاج مدفوعا من داخله هو .. من داخل ضميره وقلبه ومن ثم فهو القادر على أن تأخذ هذه الشعوب مكانتها اللائقة فى عالم اليوم .

ذلك أن أزمة هذه الشعوب هى فى الحقيقة أزمة أخلاق قبل أن تكون أزمة إنتاج أو موارد .

فهذه الشعوب تملك من الموارد الشيء الكثير الذى يكفيها ويزيد عن حاجتها لو أنها أقامت خطط التنمية فيها على أسس أخلاقية تنبع من اقتناع الشعوب بتراثها الأساسى الذى يفجر فيها طاقات الخير والعمل ، لمصلحة المجموع ورعاية مرافق الدولة بروح وضمير كل فرد .

والملاحظ فى كل هذه الشعوب أنك ترى الشعارات التى تحث على رعاية المجتمع لكن الواقع عكس هـذه الشعارات ، بل ترى مكاتب الموظفين قد علقت فى كل ركن منها وحائط ، لافتات تحض على العمل لكنك ترى الموظفين الجالسين تحت هذه اللافتات يقضون أوقاتهم فى هـذر سخيف يضيعون الوقت فى غير ما أنيط بهم من أعمال وتكاليف ، وفى الشوارع ترى هذه الشعارات قد ملأت كل مكان تشيد بالعدالة الاجتماعية والرخاء والأمن بينما لا يوجد شيء من الرخاء ولا من الأمن بل يعتدى على العدالة من يفترض فيه أنه يحرس العدالة .

وأذكر أننى فى سنة ١٩٧٠م سافرت برا مع صديق عزيز من الكويت إلى بيروت ومررنا بالعراق وجزء من من الأردن وسوريا ولبنان فأتيح لنا أن نرى حالة قسم كبير من الشعوب العربية فى المشرق وكانت هذه الحالة مثار ألم وإشفاق فى انفسنا طوال الرحلة .

والعجب أننا كنا نرى الشعارات تملأ هذه البلاد تصور فلسفة الثورة هنا أو هناك وتمنى الناس بالمستقبل الزاهر وتمجد لهم الحاضر (المزدهر) .

ولا أنسى طللا متهدما فى مكان خرب على حافة الطريق الدولى فى قلب الشرق العربى ترك على حالته الخربة المزرية وكتب عليه « حرية - اشتراكية - وحدة » ولو أقيم مكانه مقهى أو استراحة للمسافرين على هذا الطريق القفر

الموحش الذى تندر فيه مثل هذه الاستراحات لـكان خيرا وأعظم فائدة من هذا الشعار ومثله .

إن القيم الدينية وحدها هى القادرة على أن يعرف كل إنسان فى هذه الشعوب دوره فيؤديه فى موقعه بوحى من دينه وضميره وهنا فقط تنطلق عجلة التقدم والتنمية فى طريقها المرسوم .

وبدون هذه القيم لاأمل على الإطلاق ، خاصة بعد أن جربت الشعوب النامية كثيرا من ألوان النظم الوضعية ، فلم تزدها الا خبالا وتخلفا .

ولقد أصبحت هذه الحقيقة واضحة لـكل من يرى ويسمع ، مما جعل الماركسيين يقعون فى الحرج والتناقض مع أنفسهم وأمام شعوبهم ، وفى العالم العربى والاسلامى على وجه خاص ، مما باتت معه الماركسية فى أزمة حقيقية .

ففى أوربا نأخذ مثالا على ذلك « روجيه جارودى » السكرتير السابق للحزب الشيوعى الفرنسى فى كتابه « ماركسية القرن العشرين » .

فهو يقول مثلا : ـ

« إنه إذا كان القول المشهور (الدين أفيون الشعوب) قولا تؤيده التجربة التاريخية التى لاسبيل إلى جحودها ، والتى ماتزال حتى اليوم واسعة الانتشار ، فإن النظرة الماركسية إلى الدين لايمكن تلخيصها بهذا القول وحده .

فالقول بأن الدين فى كل زمان ومكان يصرف الانسان عن العمل والـكفاح ، يتناقض تناقضا صارخامع الواقع

التاريخى »(١) .

هكذا يتناقض جار ودى مع نفسه فى موضع واحد تناقضا يكشف عن الأزمة التى يعانيها من صعوبة التوفيق بين المذهب الماركسى والواقع التاريخى ».

فأى القولين نصدق ؟

ولعلنا نلاحظ أن قول جارودى الأخير (إن القول بأن الدين أفيون يصرف الإنسان عن العمل والكفاح يتناقض مع الواقع التاريخى) ينسف تماما فكرة ماركس ولينين التى يحسن تذكرها الآن .

فماركس هو الذى قال :ـ

« الدين أفيون الشعوب ، والدين وعى مزور عن العالم ، والإنسان هو الذى يصنع الدين لا الدين هـــو الذى يصنع الإنسان ، كما أن العجز والجهل هما المصدر المزدوج للأخلاق والدين ، فالدين لا يتبعه إلا ضعاف العقل » .

فماذا يبقى من فكرة ماركس ؟ .

وماذا يبقى من فكرة « لينين » الذى قالها بصراحة ووضوح أن الدين يصرف الانسان عن العمل والكفاح فى كلمته التى أوردناها فى صدر هذا الفصل ، إذ قال :

« الدين يعلم هؤلاء الذين يكدحون طوال حياتهم فى الفقر ،

---

(١) روجيه جارودى . ماركسية القرن العشرين فصل (الماركسية والدين) .

الاستسلام والصبر فى هذه الدنيا ، ويغريهم بالأمل فى المثوبة فى العالم الآخر »(١) .

وكما نرى يتناقض جارودى مع نفسه ، ويتناقض مع ماركس ولينـــين .

ومع هذا التناقض الواضح فإن جارودى يدعو إلى تحليل الظروف التاريخية للأديان لكى تلعب دورا إيجابياً وتقدمياً ، يقول :

« والماركسيون لا يبحثون فى الدين بصورة عامة ، صورة غيبية ومثالية ، بل بحثا تاريخياً وماديا ، إنهم يدرسون كيف يمكن للإيمان فى ظروف تاريخية يحسن أن تحلل علياً فى كل حالة ، أن يلعب دوراً إيجابيا وتقدميا »(٢) .

وذلك — كما هو واضح — اعتراف صريح بأن الدين يمكن أن يؤدى دوراً إيجابيا وتقــدميا على أى بحث كان ماديا تاريخيا أو غيبيا مثاليا لا يهم : -

وهذا تراجع صريح ومكشوف عن الفكرة الماركسية الأصليـــة أن الدين أفيون الشعوب ومعلوم أنه لا دور للأفيون إلا الإسكار كما قال لينين : -

« الدين فن الإسكار »

وهناك مثال آخر على تناقض جارودى ، يقول : -

---

(١) المصدر السابق ص٢٠٢
(٢) المصدر نفسه — نفس الصحيفة

« وإن هناك لأملا كبيراً مشتركا بين ملايين المسيحيين في العالم ، وبين ملايين الشيوعيين وهـــو : أن نبنى المستقبل دون أن نضيع شيئاً من ميراث القيم الإنسانية التى جاءت بها المسيحية منذ ألفى عام »(١) .

فهو — كما نرى — يعترف بأن فى المسيحية قيما فاضلة ويدعو الشيوعيين والمسيحيين معا إلى بناء المستقبل على أساس الحفاظ على الدين وعدم تضييعه أو تضييع شيء منه ومعنى ذلك أنه ليس أفيونا على الإطلاق فى نظره .

لكنه فى نفس الصحيفة يعود فيؤكد أن صيغة « أفيون الشعوب » تلخص تجربة تاريخية لا سبيل إلى نكرانها وأن تكذيبها يتعلــق بالممارسة فيقول : ـ

«إن تكذيب صيغة « أفيون الشعوب » التى لخص بها ماركس ولينين بعده ، تجربة تاريخية لا سبيل إلى نكرانها ليس قضية نظرية فحسب ، بل هو أيضاً أمر ممارسة سياسية واجتماعية ، وهذا البرهان بالممارسة على المسيحيين وكنيستهم أن يقدموه »(٢).

ومع تناقض «روجيه جارودى» مع نفسه أولا ، ثم تناقضه مع ماركس ولينين ثانيا ، ثم دعوته إلى التوافق مع الأديان بحيث تنمو الشيوعية والأديان معا فإننا نسأل : ـ

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٢ .

(٢) المصدر السابق نفس الصحيفة .

أى مواقف جارودى نأخذ؟

وإذا أخذنا موقفه الأخير من التوافق مع الأديان فمن أصدق تعبيراً عن الماركسية ؟

مبتدعها ماركس ؟ أو لينين ؟ أو جارودى ؟

وهل يقبل الماركسيون تعديل جارودى أو بعبارة أصح تناقضه وتراجعه عن أن الدين أفيون وإن كان لم يثبت كما رأينا على هذا الرأى ثباتاً واضحاً حتى يسوغ لنا أن نعتبر هذا التردد على الأقل موقف الماركسية فى صورتها الأخيرة .

الواقع لا يدع لنا مجالا لاعتبار تردد جارودى هو الموقف الأخير المعتمد لدى الماركسية فقد قامت قيامة الماركسيين عليه وعلى تعديلاته وتردده وفصل من سكرتارية الحزب الشيوعى الفرنسى بعد أن غضب سادته وكبراؤه فى الاتحاد السوفيتى مما يدل على أن الماركسية ما تزال سادرة فى باطلها ضد الأديان .

هكذا يمثل « روجيه جارودى » أزمة الفكر الماركسى فى أوربا واضطرابه بين : ـ

— التسليم بحقيقة الدوافع الإيجابية للأديان .

— وبين ادعاء أنها أفيون الشعوب .

وإذا كان هذا نموذجا لأزمة الماركسية فى أوربا وسوء موقفها ، فإن

موقف الماركسيين فى العالم العربى أكثر مدعاة للسخرية .

— فهم من ناحية لا يستطيعون المجاهرة بعدم إيجابية الدين أو بأنه أفيون الشعوب كما يفعل نظراؤهم في أوربا ، لأن شعـــوبهم لا محالة تثور عليهم .

— وهم من ناحية أخرى لايجدون أدنى سند يدعمهم ، لا من مبادىء الدين الإسلامى ، ولا من واقعه التاريخى عبر ألف وأربعمائة عام .

— وهم لا يستطيعون من ناحية ثالثة المجاهرة بالتخلى عن ماركسيتهم التى باعوا فى سبيلها ضمائرهم وعقائدهم الأصليـــه ولا يستطيعون الفكاك من ارتباطاتهم إلا قليلا منهم نحى بهذه الارتبـاطات من أجل الحق الذى رآه .

ولذلك لم ير هؤلاء مخرجا لهم إلا ادعاء أن الماركسية والإسلام أو الماركسية والمسيحية يمكن أن يجتمعا معا فى شخص ، فلا يلزم أن يكون كافراً بدينه ليكون ماركسيا.بل يمكن أن يكون مسلما أو مسيحياًوماركسيا فى الوقت نفسه .

وهذه بدعة جديدة فى الفكر الإنسانى : أن يجتمع الإيمان والإلحاد فى عقل رجل وقلبه ، أن تجتمع الماركسية القائلة :-

— « إن العالم الطبيعى لم يخلقه أحد »

— « إن المادة ليست بحاجة إلى عقل كلى .

مع الدين القائل :-

— « إن العالم الطبيعى من خلق الله ».

— والمادة بحاجة دائمة إلى حكمة الخالق وإبداعه .

وهذه البدعة أكثر تهافتا من كل مواقف المـاركسية من الدين ، وقد يكون أولى بالمنهج أن نفرد لمناقشتها الصفحات التـالية فى القسم الثاني من هذا الـكتاب .

القسم الثاني

لا جمع بين الماركسية والإسلام

. في مجال الفكر.

. في مجال الواقع.

القسم الثانى

لاجمع بين الماركسية والإسلام

الفصل الأول

على المستوى الفكرى

نستطيع أن نقول إن هناك صلة تجمع بين مذهبين فكريين أو عقيدتين دينيتين إذا كان هناك توافق ما يسمح بالجمع بينهما إلى حد قريب أو بعيد.

فهل هناك صلة أو توافق يسمح بالجمع بين الإسلام والماركسية ؟

إننا لا نحتاج إلى بحث طويل أو إعمال للذهن ، لندرك أن محاولة الجمع بين الماركسية والإسلام ، ليست متهافتة فحسب ، بل هى محاولة فاشلة تماما .

- سواء فى مجال التنظير والفكر .
- أو فى مجال التطبيق الواقعى .

ذلك أن الإسلام والماركسية متناقضان كل التناقض من جميع الوجوه ولاتوجد صلة ما فى المنطلق الذى ينطلق منه أحد الاتجاهين .

وبادىء ذى بدء ، فإن الباحث يلاحظ أن كلا من الماركسية والإسلام نظرة شاملة متكاملة إلى : الانسان ، والحياة ، والكون .

- فالإسلام يفسر الكون ، ويعلل وجوده ، وتطورات ظواهره

ويحدد علاقة الانسان بالكون ، كما يحدد علاقته بالناس ، ويضع لهم النظام الأمثل الذى يحقق لهم الحياة الطيبة إن هم اتبعوه بإخلاص.

- والماركسية هى الأخرى تدعى أنها نظرة شمولية أيضا إلى كل هذه المجالات التى حددها الاسلام ، فهى تزعم أنها تفسر الكون وتحدد علاقة الإنسان به كما تحدد علاقة الإنسان بغيره من الناس ، وتضع لهم النظام الذى تزعم أنه وحده الذى يحقق الحياة الطيبة والفردوس الأرضى لمن يطبقه ويعيش فيه .

ومن شأن النظرة الشمولية المتكاملة أنها ترفض التجزئة ، فإما أن يقبلها الإنسان جملة وتفصيلا وإما أن يردها كذلك ولا مجال للسماح بأخذ بعضها دون بعض .

ومن ثم فإن كلا من الإسلام والماركسية - بزعم كل منهما نظرة شاملة - لا يقبل التجزئة ، فلكى يكون المرء ماركسيا فلابد أن يعتنقها كلها جملة وتفصيلا ولكى يكون مسلما لابد أن يعتنق الإسلام كله جملة وتفصيلا .

والنظرتان معا - الإسلام والماركسية - لاتجتمعان معا فى نظام واحد أو فى شخص واحد لسبب بسيط وهو أن بينهما خلافا وتناقضا رئيسيا فى :-

- العقيدة .

- الفكر .

- المنهج .

- السلوك .

فى العقيدة :ـ

تقوم فكرة الإسلام على أنه لا يمكن تعليل وجود هذا الكون ، ولا فهم تطوره وتغير ظواهره إلا بالاعتقاد فى أن هناك خالقا هو الذى أوجد هذا الكون ، وهو الذى يمسك وجوده ، ويجرى عليه سننه وقوانينه ، التى تسير ظواهره المختلفة ، يقول تعالى :

« هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو . فأنى تؤفكون »(١) .

ويقول سبحانه : —

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن إمسكهما من أحد من بعده . إنه كان حليما غفوراً »(٢) .

ويقول سبحانه : —

« الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار »(٣) .

---

(١) سورة فاطر الآية ٣

(٢) » » » ٤١

(٣) » إبراهيم الآية ٣٢ ، ٣٣ .

وكما يجرى الله سننه على الكون فإنه يشرع للإنسان المنهج العقائدى والتشريعى ، الذى يجب أن يخضع له الإنسان كما تخضع ظواهر الكون ، ولابد أن يؤمن المسلم بأن تحقيق النظام والاستقرار والتوازن للحياة البشرية لايمكن أن يتم على أكمل وجه إلا إذا جرى تنظيم الحياة على وفق السنن والتشريعات الإلهية ، ولابد أن يكون هذا الإيمان مخلصا وصادقا ، يعقبه تلقى الأوامر الإلهية ، وتنفيذها فى رغبة وطواعيه .

أما الماركسية: فهى على النقيض تماما من الإسلام ، إذ هى تقوم على رفض أن يكون وراء الكون خالق ، لأنها تنكر الغيبيات عامة ولا تعترف إلا بالمادة وقوانينها التى تزعم أنها ذاتية فى المادة نفسها ومستكنة فيها ولاحاجة بها إلى خالق إطلاقا(١) .

وهكـــذا تبدو الماركسية متناقضة تماما مع الإسلام تناقض الايمان والكفر .

أما فى الفكر :-

وكما يختلف الإسلام والماركسية فى العقيـــدة فإنهما يختلفان فى تأثير العقيدة على الفكر الإنسانى .

وآثار هذه العقيدة الماركسية الملحدة ، تنعكس على كل مجالات الفكر لدى معتنقيها على أساس التفسير المادى للكون والحياة والتاريخ .

ففى مجال التفسير المادى للكون فانها تزعم أن المادة تتحرك من ذاتها كما أشرت من قبل بفعل قانون التناقض وقانون الحركة من الداخل وقانون

---

(١) انظر صحيفة ٢٦ من هذا البحث

التغير وقانون الترابط أى أن صراع الأجزاء المتناقضة فى المادة تجعلها تتحرك وتتطور من تلقاء نفسها دون حاجة إلى محرك خارجى ، وقد أثبت بطلان ذلك فى هذا البحث .

وفى مجال التفسير المادى للتاريخ يعتقد الماركسيون بفكرة ماركس التى تقوم على تفسير كل مراحل التاريخ وحوادثه تفسيرا ماديا يضع العامل الاقتصادى وراء كل حوادث التاريخ وتطوراته فالصراع بين القبائل والشعوب والطبقات على المـــادة ومواردها هو أساس هذه الحوادث والتطورات .

والماركسية ترى أن هذا الصراع حتمى والغالب فيه هو الذى يملك رءوس الأموال ووسائل الانتاج .

— أما الإسلام فلا يرى ذلك أبدا ، بل تقوم الفكرة فيه على أساس أن العلاقة بين الناس هى التكافل والتعاون وما اختلاف الأجناس وتعدد الشعوب إلا عامل من عوامل التعارف والتعاون ، قال تعالى :ـ

« ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(١) .

على أنه إذا كان هناك صراع فى التاريخ البشرى فهو ـ فى نظر الاسلام ـ بين الحق والباطل ، وأن الغلبة فى النهاية للحق مهما كانت للباطل جولات قال تعالى : ـــ

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق »(٢)

---

(١) سوزة الحجرات الآية ١٣ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٨ .

كما قال تعالى : ـ

« إن الباطل كان زهوقا »(١)

وقراءة التاريخ ومحاولة استخلاص العبرة من حوادثه إنما تبطل بشكل جلى النظرية الماركسية فى الصراع المادى وجعله وحده هو سبب كل تطور .

ولنأخذ على ذلك مثالا واحدا هو حركة الفتوحات الاسلامية التى أشرنا إليها من قبل وكانت محل إعجاب المؤرخين ودهشتهم خاصة من ناحية أن الفاتحين المسلمين لم يكونوا يقصدون إلى استنزاف مال هذه البلاد المفتوحة وثرواتها بقدر ما كانوا يقدمون لهم الخدمات المتعددة ويعينون فقراءهم من زكاة أموال المسلمين مما شرحنا من قبل(٢) ولو كان دافع هؤلاء الفاتحين هو العامل الاقتصادى لتغير موقفهم تماما .

فى المنهج :ـ

وإذا كانت الماركسية تختلف عن الإسلام فى العقيدة ، وفى الفكر المتأثر بهذه العقيدة أو تلك ، فانهما يختلفان بشكل أكثر فى منهج تطوير المجتمع ، خاصة فى الناحية الاجتماعية والاقتصادية .

ـ فمنهج الماركسية يعتمد على إثارة الصراع بين الطبقات حتى تنتصر ثورة الطبقة العاملة ، وتنتزع رءوس الأموال ووسائل الانتاج والحكم من الأغنياء ؛ لأنه مادام الصراع حتميا بين العمال والأغنياء أصحاب المصانع والمزارع ورءوس الأموال فلابد من مناصرة العمال وتقويتهم

---

(١) سورة الاسراء الآية ٨١ :
(٢) انظر صحيفة ٧١ من هذا البحث .

ومساعدتهم بكل شكل حتى ينتزعوا وسائل القوة من الأغنياء .

والماركسية من أجل ذلك تمنع الملكية الفردية وتحاربها عن طريق التأميم والمصادرة ولا تبقى إلا ملكيات صغيرة لاترضى نزعة التملك فى طبيعة البشر ، ولا تصلح لأن تكون حافزاً للعمل والإنتاج ، وهى تلغى حق الإرث الشرعى بعد أن ألغت حق المورث نفسه فى أن يمتلك مايورثه .

وهى كذلك تحتم توجيه الاقتصاد القومى من قبل الحكومة مما يترتب سوق الناس كقطعان الماشية إلى مجالات العمل حسب الخطة الموضوعة من وسائل الانتاج .

وتوجيه المجتمع فكريا وعقائديا واقتصاديا علـــى النحو المعمول به فى الدول الشيوعية يفرض نوعا من الرقابة الصارمة والضغط على الأفراد ضغطاً لا يهتم بحرياتهم ومشاعرهم واختياراتهم الشخصية لنوع العمل الذى يجبرون عليه مما يجعل المجتمع الماركسى سجناً كبيراً محكما لا يستطيع أحد الفكاك منه .

- أما الإسلام فيعتمد على منهج اقتصادى مخالف للمنهج الماركسى كل المخالفة، سواء فى حق الافراد فى اختيار العمل الذى يرغبون فيه ويجيدونه، أو حقهم فى ملكية عائد أعمالهم، أو حق الحاكم فى التوجيه ومساس ملكيات الأفراد، وحدود هذا الحق .

فالإسلام يصون الملكية الفردية ويضع لها من الضمانات مايطمئن صاحبها على عائد عمله ، ويحفزه على الجد فى هذا العمل، وفى الوقت نفسه يحيطها بضوابط تجعل منها وظيفة اجتماعية باعتبار أن الإنسان مستخلف على المال من قبل الله سبحانه وتعالى.

فمن احترام الملكية الفردية قال الله تعالى :-

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل »(١) .

وعن أن الملك الحقيقى لله سبحانه وتعالى وما الإنسان إلا مستخلف على ماله وأن ملكيته ملكية انتفاع فقط يقول سبحانه :ـ

« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »(٢) .

وعلى نفس المنهج القرآنى ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :ـ

« كل المسلم على المسلم حرام . دمه وعرضه وماله »(٣) .

كما يتلو عليه الصلاة والسلام :ـ

« أيها الناس . . إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم . . »(٤).

كما يقول :

« من قتل دون ماله فهو شهيد » (٥) .

ولذلك فالفرد حر فى عمله حر فى نتيجة هذا العمل مادام عمله مشروعاً وكسبه حلالا ، غير ظالم أو مستغل وإلا فالرسول صلى الله عليه وسلم ينبه كل مسلم إلى عاقبة الكسب غير المشروع : وأن كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :ـ

---

(١) سورة النساء الآية ٢٩ .

(٢) سورة الحديد الآية ٧ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) متفق عليه (قاله عليه الصلاة والسلام فى حجة الوداع) .

(٥) رواه الترمذى .

« يا كعب بن عجرة إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت »(١).

وإذا كان الإسلام يعطى الحرية للفرد فى العمل وناتج العمل ، فإنه فى الوقت نفسه ، يضع الضمانات التى توجه ملكيات الأفراد إلى خدمة الجماعة ، وتحول بينها وبين وقوع الضرر العام .

ومن ثم فإن على الحاكم المسلم أن يراقب حركة الثروة وحركة المجتمع وطبقاته مراقبة يقصد منها تحرى العدل ، بحيث يقف بين الأغنياء والفقراء بميزان العدالة الاجتماعية الذى لا يسمح بتركز الثروة واحتكارها عند هذه الطبقة أو تلك .

وهنا مسألة يتعلل بها الماركسيون الذين يحاولون الجمع بين الماركسية والإسلام ، إذ يعرضون حديث « الناس شركاء فى ثلاثة فى الماء ، والكلأ ، والنار » ويفسرونه بأن الإسلام يؤمم وسائل الانتاج ويضع المرافق العامة فى يد الدولة كما تفعل الشيوعية .

وهؤلاء يجهلون مبدأ أساسيا من مبادىء الاسلام وهو : أنه لا يضيع عمل عامل. وأن هذه الأشياء : النار والماء والكلأ وما شابهها رغم أنها حقا ذات تأثير كبير على حياة المجتمع إلا أنها إذا استحدثها شخص كانت من حقه، فإذا حفر إنسان بئرا واستخرج الماء منه كان ذلك حقه ، وإذا عمل إنسان على استحداث مصدر للنار أو الطاقة أو انبت العشب فى أرض كان ذلك حقه ولذلك فإن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم صريح فى أنه :-

« من أحيا أرضا ميتة فهى له »(٢) .

وعن أسمر بن مُضرّس قال . « أتيت النبى صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه .
(٢) رواه أحمد والترمذي وصححه .

فبايعته ، فقال : من سبق إلى مالم يسبق إليه مسلم فهو له ، قال
فخرج الناس يتعادون ويتخاطون »(١) .

قال الشوكانى : -

« قيل: المرادبالكلأ هنا هو الذى يكون فى المواضع المباحة
كالأودية والجبال والأراضى التى لا مالك لها ، وأما ماكان قد
أحرز بعد قطعه فلا شركة فيه بالإجماع »(٢) .

ولا داعى لتكرار القول بأنه إذا استغل صاحب الحق فى هذه المرافق فأضر الجماعة كان واجب الحاكم باعتباره الحارس لمصلحة الجماعة أن يتدخل لإعادة الحق إلى نصابه وحفظ التوازن بين الفرد والمجتمع بأى طريق يراه الحاكم المسلم عدلا محققاً لهذا التوازن .

على أن منهج الإسلام يستبعد تماما عنصر الصراع بين الطبقات أو بين العمال وأصحاب الأعمال بل يعتمد على إثارة دوافع الخير لدى الجميع محركا نوازع العمل وإحسانه ومراقبة الله فى أدائه لدى العمال ، ونوازع الرحمة والعدل والإنصاف عند أصحاب الأعمال، إلى درجة أنه يوصى أصحاب العمل بمشاركة العامل فى عمله وإعانته عليه ، ومشاركة فى طعامه وكسوته ، حتى لا يشعر العامل بأى تفرقة بينه وبين صاحب العمل ، ويعلل الاسلام ذلك بأن هؤلاء وهؤلاء إخوة ، وكل يؤدى منفعة ضرورية للآخر .

« عن المعرور بن سويد رضى الله عنه قال : دخلنا على أبى ذر
بالربذة فإذا عليه برد ، وعلى غلامه مثله . فقلنا : يا أبا ذر
لو أخذت برد غلامك إلى بردك فكانت حلة ، وكسوته ثوبا

---

(١) رواه أبو داود .
(٢) نيل الأوطار حـ ٥ ص ٣٤٠ الطبعة الأخيرة .

غيره ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليكسه مما يكتسى ، ولا يكلفه ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه »(١) .

في الأخلاق والسلوك :-

كذلك تختلف الماركسية عن الإسلام في مجال الأخلاق والسلوك .

فإذا كانت عقيدة الماركسية أنه « لا إله والحياة مادة » ، وأن الحياة صراع لا مفر منه على المادة ولا سبيل إلى تجنب هذا الصراع إلا بعد أن يقهر الأغنياء وتنتزع منهم مصادر الثروة ووسائل الإنتاج لكى تعطى للعمال والفقراء ، فإن أثر هذه الفكرة لابد أن ينعكس على الأخلاق والسلوك وفرق بين الرجل المؤمن الذى يعتقد أن هناك إلها عالما حكيما قادراً وعادلا يراه ويطلع على كل حسناته وسيئاته ، فيثيب على الحسنات ويعاقب على السيئات ، وبين الملحد الذى لا يعتقد وجود هذا الإله ، ولا يقر بوجود أى قيمة ثابتة على الإطلاق .

فالأول ينطلق بوحى من مراقبته لربه ، ورجائه لثوابه ، وخوفه من عقابه ، فلا يأتى الظلم أو السيئة ، ولا يأكل حقوق الناس إلا وهو قلق ، أو على غفلة من ضميره ، وسرعان ما يعود إلى العدل وفعل الخير .

أما الثانى فلا يوجد عنده مثل هذا الشعور على الإطلاق ، فهو يسعى إلى ما يظن أنه يحقق مصلحته ، دون نظر إلى مصالح الآخرين وحقوقهم ، ولا يبالى بما يقف فى سبيله من ذلك .

---

(١) رواه أبو داود .

والطامة الكبرى أن الملحد الذى لا يعتقد برقابة على سلوكه من قبل إله عالم، إذا اعتقد أن هناك صراعا بينه وبين الآخرين، فإنه بلا شك لن يدخر وسعا فى سحق الآخرين والقضاء عليهم وبهذا تستحيل الحياة فى المجتمع الماركسى الملحد إلى تطاحن وتضارب فقد كل عناصر الأخلاق والدين التى لا تؤمن بها الماركسية أصلا، بل اجتمعت فيه كل عناصر الحسد والبغض والكراهية.

ومن عجب أن هذه الأنانية والبغضاء والتطاحن، أهداف وأخلاق، تعمل الماركسية على نشرها فى المجتمع.

قال لينين :-

« لا نحتاج إلى الحب، بل إننا أحوج إلى البغض والأحقاد، يجب علينا أن نتعلم البغض وأن نرضعه مع اللبن »(١) :

وبقدر ما يعمل المنهج الإسلامى على تأكيد عوامل السلام فى المجتمع، وإحداث التطور والتقدم بالتآخى والتكاتف بمثل ما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم من المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين حتى يتحقق التقدم للجميع بلا عنف ولا سخائم فى النفوس. تسعى الشيوعية إلى تحقيق التطور الذى تريده بالعنف والتحطيم القاسى المفاجىء مما يدل على قصور الفكرة وقلة خبرة مفكريها بالنفس البشرية.

يقول لينين (مرة أخرى) :-

---

(١) أنظر : أنور الجندى. الفكر العربى المعاصر ص ٣٩٧.

« إن الثورة البروليتارية غير ممكنة بدون تحطيم جهاز الدولة البورجوازى بالعنف »(١) .

وفى البيان الشيوعى « المانيفستو » يقول ماركس وإنجلز :ـ

« ولايتدنى الشيوعيـــون إلى إخفاء آرائهم ومقاصدهم ومشاريعهم . يعلنون صراحة أن أهدافهم لا يمكن بلوغها وتحقيقها إلا بهدم كل النظام الاجتماعي التقليـدي بالعنف والقوة » .

كذلك يقول ماركس :ـ

« الشيوعيون لا يبشرون بأية أخلاق على الإطلاق إنهم لايضعون للناس الأمر الخلقى :أحبوا بعضكم البعض . لاتكونوا أنانيين . . . إلخ بل بالعكس . إنهم يعرفون تماما أن الأنانية مثل التضحية هى فى ظل ظروف معينة، الشكل الضرورى لصراع الفرد من أجل البقاء »(٢) .

وكان « لينين » يصر على أن الماركسية كما يقول .

« لا تحتوى على أى ظل لفلسفة الأخلاق من البداية إلى النهاية »(٣) .

---

(١) أسس اللينينيه ص ٦٦ .

(٢) المؤلفات الكاملة لماركس وإنجلز . القسم الأول . المجلد الخامس ص ٢٢٧ انظر الأسس الأخـلاقية للماركسية . أوجين كامنكا . ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ص ١٦٧ .

(٣) الأسس الأخلاقية للماركسية ص ١٧ .

والماركسية تزعم أن بإمكانها استئصال الأخلاق الدينية من نفوس الأفراد فى المجتمع الماركسى لتحل محلها الأخلاق والقيم المادية النابعة من علاقات الإنتاج والاستهلاك .

ولكننا نسأل: هل باستطاعة هذه الأخلاق المادية أن تنظم مجتمعا نزعت من قلوب أفراده كل رقابة ذاتية دينية أو بعبارة أخرى كل رقابة يبعثها الوازع الدينى على ضمير الإنسان وذاته ؟

إن الأخلاق اللادينية عاجزة عن أن تبعث فى قلب الإنسان الرحمة بأخيه الإنسان أو الحنو عليه ولا تستطيع إلا أن تجعل منه إنسانا باحثا عن المال والمنافع المادية دون نظر إلى أى قيمة عليا .

وهناك سؤال آخر: هل نجحت الماركسية أصلا فى إقناع أفراد المجتمعات التى أقامتها بالأخلاق المادية ؟

* * *

على كل حال . . هذه هى وجوه التناقض بين الماركسية والإسلام التى تحول بين أن يجتمع المنهجان معا فى نظام .

ومن هنا فإن الماركسيين يدركون ذلك بوضوح ويعملون بجد لاستئصال الإسلام من الشعوب الإسلامية وتحويلها إلى الماركسية لأنهم يعلمون أن التوفيق حقا محال .

ولكنهم فى هذه المرحلة يغالطون ، يخـدعون الشعوب الإسلامية ويروضونهم على قبول الماركسية فى النهاية .

وتبقى لنا كلمة مع المسلمين الذين يخدعون بالماركسية ،

إن بعضهم أوقعه حرصه على تطوير مجتمعه، وكراهية استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وهو يجهل دور الإسلام فى تطوير المجتمع ومنع الاستغلال ، فظن أنه يمكن الجمع بين الماركسية والإسلام .

ولئن كانت هناك نقاط موهمة للتشابه بين الماركسية والإسلام فى بعض الجوانب ، مثل : الرغبة فى قهر الاستغلال ، ومقاومة ظلم الرأسماليين المستغلين للطبقات الكادحة ، فإن ذلك أهداف الإسلام كما هى أهداف للماركسية ، فإننا نقول بكل إخلاص وحرص على هؤلاء :-

إن نقط التشابه هذه يختلف فيها منطلق الإسلام عن منطلق الماركسية ، وتحقيقها فى الماركسية قاصر عن تحقيقها فى الإسلام .

فمحاربة الاستغلال ينطلق فى الإسلام من عدة منطلقات أهمها :-

- إقامة العدل ، الذى هو من أخلاق الله، ومن أسس الحياة فى الإسلام.

- تحقيق المنفعة للضعفاء والفقراء

- إعانة الأغنياء على أنفسهم ، ووقايتهم من شر المال وضعف النفس البشرية أمامه .

لكن محاربة الاستغلال فى الماركسية تنطلق من :-

- الحقد ، الذى هو من أخلاق الماركسية (الحقد على الأغنياء) كما رأينا

- تحقيق منفعة ناقصة للفقراء .

- شل حركة طبقة مهمة فى المجتمع ، وهى طبقة الأغنياء الذين يستطيعون بأموالهم وخبراتهم المعتادة فى تطوير المجتمع وخدمة العموم .

هذا بالإضافة إلى أن أسلوب الماركسية يقضى فى النهاية على مبادرات كل فرد وابتكاراته غنيا أو فقيراً، كما تراه فى المجتمعات الشيوعية ، بخلاف أسلوب الإسلام ، لأن العقيدة والهدف والوسيلة أمور متداخلة لا يمكن فصل أحدها عن الآخر .

وإذا كنا قد حاولنا اتباع المنهج العلمى فى مناقشة الموضوع وإثبات أن الماركسيه والإسلام لا يجتمعان فقد بقى لنا أن نثبت لهؤلاء ولغيرهم أن هذه

المحاولة فى واقع التطبيق العملى ما هى إلا خدعة شيوعية المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، للوصول بعد ذلك إلى تصفية الإسلام ؛ لأن المجاهرة بالهدف النهائى من شأنه أن يصدم مشاعر المسلمين ويدفعهم منذ البداية إلى مقاومة الشيوعية مما يؤدى إلى بعث الدين ، وهذا - كما هو واضح - عكس ما يهدف إليه الماركسيون .

واثبات ذلك ليس صعبا ، بل أعلنتــــه المصادر الماركسية فى صحفها ومجلاتها ، من أشهرها : مجلة « كومونيست » فى عددها الصادر أول يناير سنة ١٩٦٤ م ، الذى تضمن تعليمات « سياسة المراحل » التى ينبغى أن تتبعها الأحزاب الشيوعية فى أنحاء العالم الإسلامى(١) .

فالمجلة فى هذا العدد ، تعلن أن الهدف الحقيقى والنهائى للشيوعية هو : القضاء على الدين ، لأن الاشتراكية لن تستقر إلا بالقضاء على العقيده الدينية

تقول :-

« ستظل العقيده الاشتراكيـــة فى نزاع مع العقيدة الدينية .

ولن يستقر التحـويل الاشتراكى الصحيح إلا بسيادة الاشتراكية على الدين » .

كما تقول :-

« وليس للاشتراكية فى الدول المتخلفة خاصة وفى المناطق الاسلامية بصفة استثنائية ، سبيل إلى الصعود بغـــير العمل الثورى .

---

(١) راجع : دكتور عبد المنعم النمر . إسلام لا شيوعية . وراجع د . صلاح الدين المنجد . بلشفة الإسلام .

إن الثورة شعار أبدى للاشتراكية فى تلك المناطق ، والثورة تعنى تحطيم الماضى وميراثه ، بما فيه الميراث الدينى ، والذين يصونونه بصفة خاصة » .

هذا هو الموقف الماركسى النهائى .

إذن : لا توفيق ، بل استئصال ، ولا معايشة بين الماركسية والاسلام ، بل لا بد من تحطيم الإسلام لتنتشر الماركسية وتسود .

ولكن كيف السبيل إلى هذا الهدف « البعيد المنال » ؟

الفصل الثانى

على مستوى التطبيق

اتضح لنا من الصفحات الماضية أن محاولة الجمع بين الماركسية ، والإسلام محاولة فاشلة لأنه : -

أولا : لا يمكن الجمع فكريا بين المنهجين .

وثانياً : لأن الماركسية فى النهاية ترفع شعار الثورة على الدين وتجعل القضاء عليه ضرورة لاستقرارها هى .

والأزمة التى تعيشها الماركسية حقاً فى مواجهتها مع الدين هى أنها تدرك بوضوح أن القضاء على الدين فعلا هدف بعيد المنال إن لم يكن مستحيل التحقيق .

تقول مجلة الكومونيست فى عددها المشار إليه من قبل (يناير ١٩٦٤) .

« مكافحة الدين وروابطه ، لاتكون بنسف الدين ومعابده كلياً من حياة الناس ، فلا تحطم الفأس مافى الضمير » .

تدبير مؤقت :

ولذلك فالماركسية فى مواجهتها الدين تعمد إلى نوع من التدبير المؤقت وتكشف المجلة نفسها عن هذا التدبير ، فتقول :-

« وإذا اقتضت مراحل التحويل الاشتراكى تعايشا مع

العقيدة الدينية ، أو إظهار الاهتمام بها فى بعض الحالات كما هو الحال فى المناطق الإسلامية ، فإن هذا الاهتمام هو من قبيل التدبير المؤقت .

. . . ولكن من الضرورى أن يأتى وقت تقرر فيه القيادة الاشتراكية تقريراً حازما بأن لامهرب بعد للهدنة مع الميراث الدينى وأصحابه ، وإلا أدت هذه الهدنة إلى بعث دينى فيه خطر على التجربة الاشتراكية » .

وهكذا نلحظ ملامح معادلة فى الموقف الماركسى ، تقوم على :-

— لابد من القضاء على الدين .

— لابأس من هدنة محسوبة مع الدين وإلا أدت إلى بعث دينى فما هى ملامح هذه الهدنة إذن أو بعبارة أخرى التدبير المؤقت ؟

إن هذا التدبير المؤقت والحذر الذى تمارسه الاشتراكية فى مواجهتها للإسلام خاصة فى هذه المرحلة يعتمد على : -

١ — إظهار الاشتراكيين احترامهم للدين .

فأول بنود هذا التدبير أن يظهر الماركسيون إحترامهم للعقائد الدينية ومحافظتهم على الشعائر والفروض ، لتخدير مشاعر الشعوب الإسلامية وخداعها ، وإسكات المعاقل الدينية عن محاربتهم .

تقول المجلة نفسها :—

« وفى بعض النظم الاشتراكية الجديدة نجد جماعات من أصحاب المسئوليات وهم اشتراكيون فكراً واقتناعاً ،

يمارسون الفروض الدينية ويحيونها، وهم يفعلون ذلك للسيطرة على زمام المعاقل الدينية لئلا تتحداهم أو ترى مرحلة التحويل الاشتراكى مرحلة قاسية.

ونحن فى الاتحاد السوفييتى لجأنا إلى هذا الأسلوب أيضا فى مناطقنا الاسلامية، كما يلجأ إليه أقطاب الحزب الشيوعى فى إيطاليا الكاثوليكية:

... ففى مثل هذه المناطق الإسلامية وجدنا أن ممارسة الطليعة الاشتراكية للفروض الدينية تساعدنا كثيراً على مرحلة التحويل الاشتراكى هناك، لأن العبادة العلنية فى الوسط الإسلامى تعبر عن احترام الطليعة الاشتراكية المحلية، وبالتالى تنتزع هذه الطليعة من الوسط الاسلامى الاحترام والطاعة للقيادة الاشتراكية»

والاشتراكية تحذر «الطليعة الاشتراكية» التى ستلعب هذا الدور من الوقوع فى شرك اللعبة الخطرة نفسها فقد يؤدى تمثيل هذه الطليعة لدور «العابد الماركسى» أو «الماركسى المتعبد» إلى الترويج للدين، أو أن يخدعوا هم أنفسهم، فيقعوا فى حبائل الدين أو يتسببوا فى إنعاش فكرة الدين فى نفوس الآخرين، وعلى ذلك يجب أن يحتفظوا «بخط الرجعة» ولا يغالوا فى تمثيل الدور.

ولعلنا نلاحظ أن الماركسيين العرب والمسلمين يمثلون الدور الآن كما يطلب منهم بالضبط.

فهم لا يكفون عن التمسح بالدين وإعلان أنهم متدينون، ولا يستحيون من أن يرتادوا المساجد حتى المسجد الحرام خداعا للناس وزلفى.

وفى الانتخابات التى جرت أخـــيراً فى مصر (سنة ١٩٧٦) كان زعيمهم يكتب فى لافتات الدعاية لانتخابه « الحاج . . » ثم يكتب فى الوقت نفسه مقالات الدعوة إلى الماركسية .

٢ — تلوين الدين بلون شيوعى ، وتحطيم مؤسساته وتطويعها لخدمة الشيوعية .

كذلك كان من وسائل هذا التدبـــير المؤقت تلوين الدين مبادئه ونصوصه بلون اشتراكى ، وتفسير مايمكن تفسيره بالطريقة الماركسية ، كتصوير الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بأنه الثائر على الاقطاع القرشى وكتفسير الإسلام على أنه ثورة الضعفاء والمحرومين .

تقول مجلة «الدين والعلم» السوفيتية :-

« وليس من الضرورى أن نهزأ من قصص الانجيل والقرآن والكتب الدينية التقليدية ، وأن نقول بأن المواعظ والصلوات بضاعة لاتصلح إلا للاطفال ، فهذا النوع من الدعاية الاشتراكية ضد الأديان لايفيد كثيراً ، وانما علينا أن نعيد تفسير قصص الدين وسيرة رجاله ومواعظهم وأحاديثهم وأقوالهم بقالب إشتراكى ، فإذا قلنا بأن « يسوع » ثائر يطلب العمل للفقراء فهذا تفسير اشتراكى وبمثل هذا نقول عن محمد وغيره » .

ولعلنا نذكر الخطب والمحاضرات التى ألقاها المضطلعون بالعمل السياسى فى بعض البـــلاد العربية والإسلامية فى المرحلة الماضية مهتدين بإشارات موسكو وتعليماتها فى تلوين الدين بلون ماركسى ، كما نذكر الكتب التى ألفت فى هذا الصدد . ولم يكن هؤلاء وهؤلاء يكفون ،

عن إيراد بعض الأحاديث النبوية الشريفة الواردة فى العداله الاجتماعية والإيثار ، وغير ذلك من المعانى السامية فى الإسلام لنطويعها للاشتراكية العلمية والتدليل بها على أن الاشتراكية هى روح الإسلام أوأن الإسلام والاشتراكية لايفترقان بل ذهب البعض إلى إطلاق تسميات «الاشتراكية الإسلام » حتى أن عالما جليلا هو الدكتور « مصطفى السباعى »أصدر كتابه بهذا العنوان « إشتراكية الاسلام » .

بل ان كاتباً إسمه « محمد عطا» تجرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتباره داعية اشتراكياً نبتت دعوته من بيئته العربية الإقطاعية مجرداً بذلك رسول الإسلام والإسلام نفسه من مصدره الالهى .

وقد ضمن هذه الأفكار مقالا نشره الملحق الدينى لجريدة الجمهورية القاهرية الصادر فى ٦٦/٧/١ بعنوان« محمد بن عبد الله . . إمام الاشتراكيين» يقول فيه :ـ

« إن دعوة محمد نابعة من حياته الأولى ، متأثرة بالوضع الطبقى الشاذ » .

ثم يقول :ـ

« وعمد ـ يعنى محمداً ـ إلى تحريم الربا ؛ لأنه «ظهر من مظاهر النظام الرأسمالى ، والقضاء على الاحتكار » .

ثم يقول أيضا :ـ

« لقد كانت الدعوة المحمدية فى القرن السابع الميلادى ، وبعد عشـــرة قرون كاملة من ظهورها بدأت تظهر ملامح الاشتراكية المثالية التى ـ وإن تحددت أهدافها — إلا أنها فقدت المنهج التطبيقى وظهر من الدعاة الاشتراكيين توماس مور ، وجيرادو نستانلى ، والأسقف ميزلييه .

.. . أما الإسلام فى قرنه الرابع عشر فإنه لم يستطع أن يبرز من الدعاة سوى الرئيس جمال عبد الناصر » .

وواضح من المقال - كما يقول الدكتور صلاح الدين المنجد - أن الكاتب ينفى الرسالة الإلهية عن محمد صلى الله عليه وسلم فيجعله هو واضع الدين ويجعله واحداً من الدعاة الاشتراكيين(١) .

وهكذا انتشرت هذه الموجة انتشاراً كبيراً فى المرحلة الماضية إلى درجة أن اصطبغت بها الحياة الفكرية والاجتماعية وخدع بها الكثيرون وراحوا على صدى الصوت يلونون الإسلام باللون الاشتراكى وهم يشعرون أو لا يشعرون

حتى وصل الأمر إلى التصوف الإسلامى فقدلون هو الآخر باللون الاشتراكى ولبس ثوبه وعلى يد شيخ مشايخ الطرق الصوفية نفسه الشيخ محمد علوان إذ قال فى تصريح أدلى به المحلق الدينى لجريدة «الجمهورية» القاهرية الصادر فى ٢٤ / ٦ / ١٩٦٦م

« التصوف كله اشتراكية ، ورائد الإشتراكية فى الإسلام هو أبو ذر الغفارى . وتاريخ التصوف فى مختلف العصور ما هو إلا الاشتراكية فى أكرم الصور .

كما قال : —

«إن المتصوف إشتراكى بفطرته» وكل شيخ برجاله ومريديه كتيبة اشتراكية، تزرع المعانى وأصول الاشتراكية فى النفوس وهو بهذا يعمل على تدعيم المعانى الاشتراكية وزرع عناصرها الأولى فى نفوس الناس » (٢) .

ولا تنسى الشيوعية أو تغفل عن أن توصى أتباعها بالحذر خلال عملية

---

(١) د . صلاح الدين المنجد . بلشفة الإسلام ص ٨٠ و ٨١
(٢) عن المصدر نفسه .

التلوين هذه ، حتى لا ينقلب الأمر إلى دعاية للإسلام. وتقدم الاشتراكية العلمية « الوصفة » المناسبة لدرء خطر الدعاية للإسلام فى هذا المجال وهى: أن لا بد من أن يصاحب عملية التلوين عملية أخرى وهى : تحطيم المؤسسات الدينية وتطويعها هى الأخرى لخدمة الاشتراكية .

تقول مجلة الكومونيست فى عددها الصادر فى يناير ١٩٦٤ م :-

« إن الذين نشطوا للدعوة بأن الإسلام دين الاشتراكية يجب أن يكونوا على حذر دائما ، فلا نفع فى هذه الدعوة إن لم يصاحبها تحطيم للمنظمات الدينية وصهرها فى بوتقة التحويل فالتنقيح الأديان كما أوصى به « لينين » يجب أن يصحبه الهدم لكل قاعدة يمكن أن يتخذها الدين سبيلا إلى البعث أو التضامن أو التحدى للاشتراكية » .

والعقل الشيوعى إذ يجمع بين تلوين الدين بلون اشتراكى وتحطيم مؤسساته والسيطرة عليها يوصى بأن يكون هذا التحطيم عن طريق إغراء بعض رجال الدين وتجنيدهم لخدمة الحركة الاشتراكية والسيطرة عن طريقهم على المؤسسات الدينية والعلمية لتكون تحت تصرفهم وفى خدمة مبادئهم .

تقول مجلة الدين والعلم السوفيتية : -

« ويجب أن نجند بعض رجال الدين وبعض النصوص الدينية إذا أمكن لمثل هذه الدعوة الاشتراكية ، ولذا فلابد من أن تخضع المعاقل الدينية كالجامعات والمؤسسات والجمعيات والمساجد والكنائس لسيادة الحزب الاشتراكى

فى الدولة الاشتراكية وتصبح جهازا يمكن ضبطه واستعماله عند الحاجة ».

وهنا نذكر تصريحات وزير الأوقاف المصرى لجريدة الجمهورية القاهرية يوم ١٩٦٦/٧/١٥ حيث قال :

« إن رسالة وزارة الأوقاف ومهمتها اشتراكية بحتة وإن كل ماتعمله الوزارة منصرف آليا إلى تعميق جذور الاشتراكية فى مجتمعنا العربى » (١).

وكان الدكتور محمد وصفى مدير الشئون الدينية فى أمانة الدعوة سنة ٦٦ قد صرح للملحق الجمهورية أيضا بتاريخ ١٩٦٦/٦/١٠ م قائلا : -

« عقد السيد كمال الدين رفعت عدة اجتماعات هامة مع السادة مشايخ البعوث الإسلامية ، ومشايخ الأروقة فى الأزهر . وأستطيع أن أقول لك إن الصورة الكاملة لكل هذه الجهود يمكنك أن تراها واضحة وحية ... عندما تجد كل مواطن ومواطنة يحملان كتاب الله فى يد والميثاق كتاب الثورة فى يد أخرى »(٢) .

٣ - قطع الروابط الدينية بين الشعوب الإسلامية وإيجاد روابط أخرى تحل محل الفكرة الدينية فى ربط هذه الشعوب بعضها ببعض .

تقول مجلة الدين والعلم :-

« فإعادة النظر فى الميراث الدينى ضرورة حتمية لنجاح

(١ ، ٢) عن د . صلاح الدين المنجد أيضاً . بلشفة الإسلام .

الاشتراكية ، وقطع الروابط الدينية بين الشعوب واجب تفرضه حاجات النظم الاشتراكية » .

ولعلنا نذكر نشاط بعض أبناء العرب والمسلمين وزعمائهم فى الفترة الماضية إلى دعوة « القومية » ، وتركيزها فى المجتمعات العربية والإسلامية ، وقيام بعض الأحزاب العربية ، كحزب « البعث العربى الاشتراكى » على اعتبار أن القومية العربية تشكل مع الاشتراكية العلمية أساسا لفلسفة المجتمع ، مع أن الاشتراكيـــة العلميـة أممية تتنافى مع دعوة القومية ، ولكن كل شئ جائز ومعقول فى فكر المتمركسين ولو كان جمعا بين المتناقضات .

٤ — الإعلاء من شأن القيم المادية فى العلم ، والغض من شأن الروحية فى الدين .

والعجيب أن الشيوعية فى هذا التدبير المؤقت كما رأيناها تركب موجة الدين وتحاول أن تسخره لخدمتها ، فهى تجمع إلى هذا كفلسفة دائمة تضاف إلى هذا التدبير المؤقت محاولة الإعلاء من شأن القيم المادية التى جاء بها العلم المادى والغض من شأن القيم الروحية التى جاء بها الدين . .

تقول مجلة الكومونيست فى العدد المشار إليه (يناير ١٩٦٤) .

« مهمة الإلحاد العلمى أن تتركز الدعوة الاشتراكية على الترويج لشعار الثورة ، والتركيز على خلق وعى مادى ، كالدعوة إلى العلم فى نفوس الجماهير ، لينفروا من الدعوة الروحية التى فى جعبة الإيمان » :

وقد نشطت هذه الدعوة فى السنين الأخيرة خاصة ، ووجد من يتشدق

بعبارات التفكير المنطق والمنهج العلمى فى مقابل : التفكير الدينى والمنطق الغيبى ، وتصوير الأول بأنه جهد الإنسان والمظهر المعبر عن ذاته ، وتصوير الثانى بأنه وارد على الإنسان من قوى خارجية مسيطرة عليه لا يسعه إزاءها إلا الاستسلام المنافى للجهد الإنسانى الخلاق .

ولقد أراد الشيوعيون فى مصر أن يستغلوا حرب رمضان ١٣٩٣ هـ وما أحرزه الإنسان المسلم خلالها من توفيق ، فأخذت جريدة « الأهرام » القاهرية — ولما تنته المعركة بعد — تنشر عدة مقالات مثل « المعركة والتفكير اللا عقلى » للدكتور «فؤاد زكريا» تظهر المعركة على أنها جهد إنسانى بحت ، وذلك فى مواجهة الشعور الجارف الذى ساد حينذاك لدى أفراد الشعب كله بأن النصر كان من عند الله بتوفيقه فى إعداد العدة وفى التخطيط والأداء .

* * *

على أن هناك نقطة هامة يجب أن يتنبه إليها الإنسان بصدد هذا التدبير المؤقت ضد الإسلام وضد الأديان عامة وهى أن اللجوء بهذا الشكل إلى مثل هذه التدابير يعبر عن :-

١ — عدم إمكان تعايش الماركسية مع الإسلام . ولو كان هذا التعايش ممكنا لما لجأت الشيوعية إلى سحق المسلمين والقضاء على الإسلام بتدبير مؤقت ، أو بمواجهة مباشرة .

٢ — كما أن اللجوء إلى مثل هذه التدابير المؤقتة يعبر عن عجز الشيوعية عن المواجهة المباشرة للأديان خاصة على المستوى الفكرى .

بل إن اللجوء إلى هذه التدابير يعكس هزيمة الشيوعية فعلا فى القضاء على الإسلام سواء فى مجال المحاورة العقلية ومقارعة الحجة بالحجة ، أو فى مجال القهر والقوة وأخذ المتدينين بالشدة فى الاضطهاد ، حتى يعدلوا عن الدين إلى الشيوعية .

ذلك أن الخصم المتمكن لا يلجأ إلى اللف والدوران حول خصمه، إلا إذا عجز فى مجال المواجهة المباشرة عجزا يلجئه إلى اللف والدوران .

وذلك ديدن الشيوعية وعادتها باستمرار .

عندما تكون ضعيفة فى بلد ما، فإنها تلجأ إلى الحيلة فى اكتساب الأعوان وجمع الأنصار ، فإذا قويت أو ظنت نفسها على قوة فإنها تبطش بمن ساعدوها وتتحكم فى مصائرهم بأشد ما تكون القسوة .

ونفس هذا المخطط الشيوعى أمام الإسلام لايتغير سواء فى :ـ

ـ روسيا .

ـ أو الصين .

ـ أو فى النظم أو الأحزاب والشخصيات المقلدة التى تنسج على منوال روسيا أو الصين فى أنحاء العالم العربى والإسلامى .

وقد اخترنا هنا :ـ

ـ روسيا باعتبارها أسبق الدول الشيوعية إلى التجربة .

ـ ولأنها تتهم من قبل الصين بأنها مرتدة ويصف الصينيون الروس بأنهم المرتدون السوفييت » : « فقد اخترنا الصين أيضا لنرى حقيقة موقف التجربة الماركسية هناك من الإسلام .

ـ كما اخترنا من النماذج الماركسية الأخرى بلغاريا ويوغوسلافيا التى تأخذ من الماركسية بقدر يختلف باختلاف الظروف .

وفى اختياراتنا الثلاثة حرصنا على أن يكون الاعتماد على الوثائق وحدها فهى مرآة الواقع ومظهره الحقيق .

فعندما قامت الثورة البلشفية فى روسيا راح البلاشفة يتملقون الأقطار الإسلامية خاصة الولايات التى تقع تحت حكمهم الآن، وراحوا يضربون على الأوتار الحساسة لدى هذه الولايات ويطلقون النغمات التى يعرفون أنها تجد هوى فى نفوس المسلمين هناك .

ذلك أن هذه الولايات هى التى حملت عبء مقاومة القياصرة الروس قبل الثورة ، وتحملت الكثير من العسف والاضطهاد من هؤلاء القياصرة، وقدمت ملايين الضحايا من أجل العدل والانصاف والاستقلال :

فلما قامت الثورة سرعان ما أصدرت بيانا فى ٧ ديسمبر سنة ١٩١٧ م تدعو فيه هذه الشعوب الإسلامية إلى مناصرتها ضد نظام القياصرة وتعدها بالعداله والاستقلال :

ونستطيع أن ندرك بوضوح نبرة النفاق فى هذا البيان عند استعراض بعض ماجاء فيه ، مثل :-

« إن امبراطورية السلب والعنف الرأسمالية توشك أن تنهار ، والأرض التى تستند عليها أقدام اللصوص الاستعماريين تشتعل نارا .

وفى وجه هذه الأحداث الجسام تتجه بأنظارنا إليكم يا مسلمى روسيا والشرق .

أنتم يامن تشقون وتكدحون وعلى الرغم من ذلك تحرمون من كل حق أنتم له أهل .

أيها المسلمون فى روسيا :

أيها التتر والأتراك فى القوقاز :

أيها التشيشيون :

أيها الجبليون فى أنحاء القوقاز :

أنتم يا من انتهكت حرمات مساجدكم وقبوركم واعتدى على عقائدكم وعاداتكم وداس القياصرة وطغاة الروس على مقدساتكم .

ستكون حرية عقائدكم وعاداتكم وحرية نظمكم القومية ومنظماتكم الثقافية مكفولة لكم منذ اليوم ، لا يطغى عليها طاغ ولا يعتدى عليها معتد .

هبوا إذن فابنوا حياتكم القومية كيف شئتم ، فأنتم أحرار لا يحول بينكم وبين ما تشتهون حائل .

إن ذلك من حقكم إن كنتم فاعلين .

واعلموا أن حقوقكم شأنها شأن حقوق سائر أفراد الشعب الروسى تحميها الثورة بكل ما أوتيت من عزم وقوة ، وبكل ما يتوفر لها من وسائل ، جند أشداء ، ومجلس للعمال، ومندوبين عن الفلاحين .

وإذن فشدوا أزر هذه الثورة ، وخذوا بساعد حكومتنا الشرعية .

أيها المسلمون فى الشرق :

أيها الفرس والأتراك والعرب والهندوس :

أنتم جميعا يا من وطىء الأوربيون القراصنة أرضكم ،

وتاجروا بأرواحكم وأملاككم وحرياتكم قرنا بعد قرن .

أتتم جميعا يا من يحاول اللصوص الذين أشعلوا نار الحرب أن يقسموا بلادكم بينهم .

اخلعوا عن أعناقكم نير هؤلاء اللصوص أولئك الذين يستعبدون أهلكم ويستبيحون دماءكم وأرواحكم ، فإن من المستحيل عليكم بعد الآن أن تظلوا قابعين لا تحركون ساكنا فى وقت تهز فيه الحرب عرش النظام القديم ، وتشتعل فيه نفوس العالم كله حنقا على الغاصبين المستعمرين وتمتد فيه شرارة الغضب فتصبح ثورة تأتى على كل شىء .

حذار أن تضيعوا وقتكم دون أن تلقوا عن كاهلكم نير المستبدين والظالمين الذين استبدوا بكم وبأوطانكم .

إياكم أن تدعوهم يسلبونكم ما أوتيتم من خير بعد اليوم .

وعليكم من اليوم أن تشيدوا صرح كيانكم بأنفسكم وبطريقتكم الخاصة وفق ما تحبون وما تختارون ، فإن من حقكم أن تفعلوا ، وإنكم لفاعلون . وهاهو مستقبلكم فى أيديكم .

أيها الرفاق !

أيها الإخوة !

لنتقدم سويا فى عزم وصلابة نحو سلم عادل ديمقراطى !

إن رايتنا تحمل معها الحرية للشعوب المظلومة فى أرجاء العالم !

أيها المسلمون فى روسيا !

أيها المسلمون فى الشرق !

إننا ونحن نسير فى الطريق الذى يؤدى بالعالم إلى بعث جديد نتطلع إليكم لنلتمس عندكم العطف والعون » .

وبالرغم من هذه اللهجة التي استدرت بها الشيوعية عطف المسلمين في روسيا والعالم، تلتمس منهم العون والتأييد وتعدهم بمستقبل مشرق حر يبنون حياتهم بطريقتهم الخاصة كما ورد في هذا البيان الذي وقعه فيمن وقعه لينين وستالين في ٧ ديسمبر سنة ١٩١٧ فإنه لم تمض شهور قليلة حتى كان الواقع عكس ذلك البيان تماما .

ففي ابريل سنة ١٩١٨ (بعد أربعة أشهر فقط من صدور البيان) صدر أمر لينين بالزحف الفوري على البلاد الإسلامية ولم تمض سنة ١٩١٨ حتى كان الشيوعيون قد استولوا على الأورال وشمال القوقاز وخوقند .

وفي سنة ١٩١٩ استولوا على جمهوريه ألاسن .

وفي سنة ١٩٢٠ احتـــلوا القرم كما احتلوا جمهورية أذربيجان وجمهورية خيوة .

وفي سنة ١٩٣١ هجموا على بخارى واستولو عليها وأخضعوا مقاومة أهلها التي استمرت عشر سنين

والحزن المبكي - كما يقول الشيخ محمد الغزالي(١) - هو ما وقع من الشيوعيين بعد احتلال هـــذه البلاد لأنه لم يقـــع من أي احتلال استعماري سبقه في التاريخ الإنساني على الإطلاق .

فلم يعرف تاريخ الإنسانية من قبل استعمارا يجمع بين هذه المنكرات التي لا يطيق بشاعتها متحضر، أو حتى غير متحضر

- فقد استنزف الشيوعيون كل ما في هـذه الولايات الإسلامية من كنوز وخيرات .

---

(١) الاسلام في وجه الزحف الأحمر ص ١٢٨ .

- كما مارسوا حرب التجويع والإبادة اذ كانوا يحرقون المحاصيل، وينقلون الأقوات

وقد نشرت جريدة « إزفستيا » فى عددها الصادر فى ١٥ / ٧ / ١٩٢٢ تقريرا للرفيق «كالينين» عن مجاعة القرم جاء فيه :-

« بلغ عدد الذين أصابتهم محنـــة الجوع فى شهر يناير ٣٠٢ر٠٠٠ مات منهم ٤١٣ ر ١٤، وارتفع عددهـم فى شهر مارس إلى ٠٠٠ ر ٣٧١ مات منهم ٩٠٢ ر ١٩، وبلغ فى ابريل ٠٠٠ ر ٣٧٧ مات منهم ٧٤٤ر ١٢ ، وفى شهر يونيه بلغ ٠٧٢ ر ٣٩٢ . ولم يذكر عدد الموتى إلا أنه قال : إن أكل لحم الانسان لم يكن من الحوادث التى يستغرب لها ، أو تبدو عجيبة فى بابها(١) »

كذلك عمد الشيوعيون إلى نقل المسلمين من مواطنهم التى ولدوا فيها ونشأوا، إلى ولايات روسية أخرى ونقلوا من أهالى تلك الولايات الروسية الأعداد الضخمة إلى الولايات الإسلامية وسلمتهم أراضى المسلمين بينما وقف المهجرون المسلمون فى مهاجرهم الثانية أمام الفقر والجوع ولم يجدوا بابا للعمل إلا اجراء زراعيين لقاء أجور زهيدة ومن لم يمت منهم بالجوع مات بالحسرة والأسى .

ودور العبادة التى وعد بيان ٧ ديسمبر بحمايتهـا ورعايتها ؛ تعرضت هى الأخرى للتدمير والتخريب ، كما دمرت المدارس والمعاهد الدينية الإسلامية .

---

(٢) المصدر السابق ١٣١

واندع الوثيقة التالية تصف ما لاقاه المسلمون فى الاتحاد السوفيتى من النظام الشيوعى وهى عبارة عن شكوى أرسلها وكيل الجامع الأزهر الأسبق الشيخ محمد عبد اللطيف دراز بالاتفاق مع بعض المهاجرين المسلمين من الاتحاد السوفيتى إلى هيئة الأمم المتحدة(١) وكان نصها:-

نتشرف برفع هذه الشكوى إلى هيئتكم الموقرة، باسم الشعوب الإسلامية التى ترسف فى أغلال الذل والعبودية تحت وطأة الحكم الشيوعى الذى امتدت سلطاته حتى شملت البلاد الواقعة بين شبه جزيرة البلقان والمحيط الهادى.

ويقيم على هذه الرقعة أكثر من مائة مليون من المسلمين فى أحوال وظروف تفوق فى فظاعتها وقسوتها أظلم عصور التاريخ الغابر.

حتى أن الأجيال المقبلة ستستحي وتخجل من مدنيتنا الحديثة المعاصرة، ومن نظمنا السياسية والخلقية والفلسفية جميعا عندما تذكر هذه الظروف القاسية التى يعيش فيها مائة مليون من بنى الانسان، دون أن تتحرك الهيئات العالمية لنجدتهم. تلك الهيئات التى أسست لحماية الكرامة الإنسانية ولضمان أبسط الحريات التى نؤمن وتؤمنون معنا بوجوب توفرها للناس أجمعين من غير نظر إلى دينهم، أو جنسهم، أو لونهم أو لغتهم.. فان هناك قاسما مشتركا بين بنى البشر جميعا وهو: الإنسانية.

إننا نجأر بالشكوى لدى هيئتكم الموقرة ضد نظام الحكم

(١) عن المصدر نفسه ص ١٣٧

المفروض بقوة السلاح على هؤلاء الناس . . . وهو نوع من الحكم يسعى إلى هدم كل مابنته يد الإنسان منذ آلاف السنين ويحاول أن يدوس بأقدامه كل ما قدسته الإنسانية منذ القدم ، ليخلق عالما جديدا خاليا من الاعتقاد بالله ! لاعبادة فيه إلا للقوة الغاشمة والمادة الفانية ! !

وخليق بنا فى هذا المقام أن نذكر أن التجارب والحوادث الواقعة اثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن لا فرق بتاتا بين الشيوعية القومية والشيوعية العالمية ، وأن الدول التى تفرق بين هذين النوعين من الحكم إنما تزعزع إيمان الأحرار فى كل مكان ، وتخلق بلبلة عامة فى الأفكار ،لأنها باظهار سخطها على الشيوعية العالمية ، ومساعدتها غير المشروطة للشيوعية القومية ، تظهر للعالم بأسره أنها لا تناوىء الشيوعية كمبدأ هدام وإنما تعارضها كحكم سياسى ينافسها فى السيادة العالمية .

إن أكثر من مائة مليون ،مهدد كيانهم فى بلاد كانت يوما ما مركزا للحضارة الإسلامية بل الحضارة العالمية جمعاء .

وسنوجز هنا ، الطرق التى دأبت الشيوعية على سلوكها فى سبيل اضطهاد المسلمين ، ومحو معالم دينهم ومدنيتهم ، مدعمين كل طريقة منها بالأمثلة الحية من الوقائع والحوادث الثابتة :-

١ — الإبادة الجماعية ، أونفى جزء من الشعب . أو الشعب كله من وطن آبائه وأجداده إلى سيبيريا أو إلى مناطق أخرى حيث يفقدون الصلة بوطنهم الأصلى ويضيعون بمرور الزمن .

ونستدل على ذلك بالوقائع الآتية :ـ

ا — قتل الشيوعيون فى التركستان وحدها سنة ١٩٣٤ مائة ألف مسلم من أعضاء الحكومة المحلية والعلماء والمثقفين والتجار والمزارعين .

وفيما بين سنة ٣٧ — ١٩٣٩ ألقت روسيا القبض على ٥٠٠ ألف مسلم وعـــدد من الذين استخدمتهم فى الوظائف الحكومية ثم أعدمت فريقا وأرسلت فريقا آخر إلى مجاهل سيبيريا .

وقتلوا سنة ١٩٥٠م ٧ آلاف مسلم، ونفوا من التركستان سنة ١٩٣٤ م ثلاثمائة ألف مسلم .

وقد هرب من التركستان منذ سنة ١٩١٩ حتى اليوم مليونان ونصف مليون من المسلمين .

وفى سنة ١٩٤٩ هرب ألفان من التركستان الشرقية ولقى حتفه من هذا الفريق الهـارب ١٢٠٠ وهم فى الطريق إلى الهند .

وفى سة ١٩٥٠ هرب من التركستان ٢٠,٠٠٠ من المسلمين التجأوا إلى البلاد الإسلامية فى الشرق الأدنى .

ومن سنة ١٩٣٢ — ١٩٣٤ مات ثلاثة ملايين تركستانى جوعا نتيجة استيلاء الروس على محاصيل البـلاد وتقديمها للصينيين الذين أدخلوهم إلى تركستان .

ونتيجة قانون مزج الشعوب فى الاتحاد السوفيتى نفت روسيا ٤٠٠٫٠٠٠ مسلم تركستانى إلى أوكرانيا وأواسط روسيا ، فاندمجوا فى تلك الشعوب وفقدوا وطنهم الأصلى .

وفى سنة ١٩٥١ ألقى القبض على ١٣٥٦٥ مسلما فى التركستان وأودعوا المعتقلات .

ب — أبادوا فى القرم سنة ١٩٢١ مائة ألف مسلم بالجوع وأرغموا خمسين ألف مسلم على الهجرة فى عهد « بللا كون » الشيوعى المنغارى الذى نصبوه رئيسا للجمهورية القرمية الاسلامية

وفى سنة ١٩٤٦ نفوا شعبين إسلاميين كاملين وهما : شعب جمهوريتى القرم وتشيس ، إلى مجاهل سيبيريا وأحلوا محلهم الروس .

وقد قلد الشيوعيون فى شرق أوربا رفاقهم فى الاتحاد السوفيتى فأبادوا فى يوغوسلافيا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ٢٤ ألف مسلم (١٥ ألف من مقاطعة طوزلا - ٣ آلاف فى مدينـــة سراييفوا ، ٦ آلاف من ماكدونيا وكوسوفا — أتوا بهم إلى مدينة دوبرونيك ثم أبادوهم) .

٢ — هدم المساجد وتحويلها إلى دور للهو واستخدامها فى غايات أخرى وإقفال المدارس الدينية .

ا — قد بلغ مجموع المساجد التى هدمت أو حولت إلى غايات أخرى فى التركستان وحدها ٦٦٨٢ جامعا ومسجدا منها أعظم المساجد الأثرية مثل « منارة مسجد كالان » فى

مدينة بخارى و « كتبة جامع » في مدينة قوقان و « جامع ابن قتيبة » و « جامع الأمير فضل بن يحي » و « جامع خوجه أحرار » في مدينة طشقند .

ومجموع عدد المدارس والكتاتيب التي أقفلوها في التركستان يبلغ ٧٠٥٢ مدرسة منها ديوان « بيكي مدرسة » في مدينة بخارى ، و « بكاريات مدرسة » و « بران حان مدرسة » في مدينة طشقند ، وغيرها من المدارس التاريخية التي كانت يوما ما مناهل للعلم والعرفان .

(ب) وفي القرم طمسوا معالم الإسلام بما فيها الجوامع الأثرية في مدينة « باعجه سراى » عاصمة القرم الجميلة ، مثل « جامع حان » وجامع « طوز يازار » و « جامع أصما قوير » وغيرها جميعاً .

(ج) وهدموا في مدينة زغرب في يوغوسلافيا جامعا عظيما شيد رمزاً لوحدة عنصـــرى الشعب الكرواتي : المسلمين والكاثوليك ، وأغلقوا في مدينة سراييفو الأكاديمية الإسلامية العليا للشريعة الإسلامية ، وجميع المدارس الدينية باستثناء واحدة فقط أبقوا عليها للدعاية .

٣ — قتل رجال الدين أو نفيهم أو الحكم عليهم بالأشغال الشاقة أو منعهم من الحقوق السياسية بل والحقوق الإنسانية وإيجاد أية عقبة أخرى تحول بينهم وبين مزاولتهم لمهنتهم .

(ا) لقد قامت روسيا بعدة حملات على رجال الدين المسلمين في التركستان وغيرها من المناطق الإسلامية الشاسعة المندمجة في امبراطوريتها الحمراء ، وقتلت كثيراً منهم ومن ضمنهم فضيلة

الشيخ برهان البخارى قاضى داملا ، والشيخ محسوم متولى ، والشيخ عبد الأحد داد خان ، والشيخ الحاج ملا يعقوب ، والشيخ ملا عبد الكريم ، وغيرهم كثيرون .

(ب) وكذلك عملوا فى القرم حيث أضافوا إلى وحشيتهم من رجال الدين حرق المصاحف الكريمة فى الميادين العامة .

(ج) وفى يوغوسلافيا قتلوا مفتى كرواتيا فضيلة الشيخ عصمت مفتيتش، والعالم الفاضل الشيخ مصطفى بوصولا جيتش، وحكموا بالأشغال الشاقة مددا مختلفة على ١٢ عالما دينيا بعد محاكمة صورية فى مدينة سراييفو منهم فضيلة الشيخ قاسم دوراجا شيخ علماء البوسنة والهرسك ، وفضيلة الشيخ عبد الله درو بيسيوفتش وكلاهما من علماء الأزهر الشريف .

٤ — قتل الزعماء السياسيين أو نفيهم . من أمثال ذلك :

ا — أن الشيوعيين قتلوا فى التركستان الشرقية سنة ١٩٣٤ الحاج خوجة نياز رئيس الجمهورية ومولانا ثابت رئيس مجلس الوزراء، وشريف حاج قائد مقاطعة آلتا . ، وعثمان أوراز قائد مقاطعة كاشغر ، ويونس بك وزير الدولة ، والحاج أبو الحسن وزير التجارة ، وطاهر بك رئيس مجلس النواب ، وعبدالله داملا وزير الأشغال ، وغيرهم كثيرون لايتسع هذا المقام لذكر أسمائهم .

وكلما أحس الشيوعيون ببوادر أية حركة قومية أو إسلامية بين التركستانيين، قاموا بحملة التصفية ،وهى حملة يراد بها القضاء على كل من تحدثه نفسه بما قد يخالف تعاليم آلهة الشيوعيين . . . « ماركس » و « لينين » و « ستالين » .

(ب) وفى القرم قتلوا سنة ١٩٢٨ ولى إبراهيم رئيس الجمهورية مع جميع وزرائه ، وفى سنة ١٩٣٠ قتلوا محمد قوباى رئيس جمهورية القرم مع هيئة وزرائه جميعا ، وفى سنة ١٩٣٧ استدعوا إلى موسكو إلياس طرحان رئيس جمهورية القرم أثناء محاكمة المارشال تحاتشفسكى وأعدموه رميا بالرصاص مع أعضاء حكومته .

(ج) وفى يوغوسلافيا حكمت محكمة « سكوب » فى « ماكيدونيا » سنة ١٩٤٧ على سبعة عشر زعيما ألبانيا من الألبانيين المقيمين فى يوغوسلافيا ، وفى نفس السنة حكمت محكمة « بريشتيقا » على ٣٧ من الأعيان الألبانيين ثلاثة منهم بالإعدام والباقى بالأشغال الشاقة .

وفى سنة ١٩٤٩ أى بعد انفصال يوغوسلافيا من دول الكومنيفورم حكمت محكمة سرايفو على ١٣ زعيما من المنتمين إلى « جمعية الشبان المسلمين » المنحلة أربعة منهم بالإعدام والباقى بالأشغال الشاقة .

٥ — منع المسلمين من التمتع بالنظم الإسلامية فى دائرة الأحوال الشخصية .

— فقد ألغيت المحاكم الشرعية فى جميع أنحاء الاتحاد السوفيتى وفى يوغوسلافيا نشرت جريدة Novodobe الصادرة فى سرايفو بتاريخ ٢٢ مارس ١٩٤٦ قانوناً بإلغاء المحاكم الشرعية فى جميع أنحاء يوغوسلافيا .

ومعنى ذلك خروج الأسرة الإسلامية من دائرة توجيه الشريعة الإسلامية إلى دائرة القوانين الشيوعية التى تنادى بالإباحة

التامة و بانحلال الروابط الطبيعية بين أعضاء الأسرة الوحدة .

— هذا إلى جانب نهب البلاد الإسلامية و نقل ثرواتها إلى مقاطعات أخرى ، وتمزيق أوصال كل بلد إسلامى واحد وخلق قوميات مستقلة على أساس لهجات لغة واحدة بقصد تشتيت المسلمين من نفس الجنس واللغة ، وخلق منازعات مصطنعة بينهم ، كما قسموا تركستان إلى ستة جمهوريات على هذا الأساس الوهمى .

ثم تذكر أن الشيوعيين يقومون بشتى أنواع الدعاية اللادينية من غير أن يسمحوا بالدعاية الدينية .

من أمثال ذلك : قيام الشبيبة الشيوعية وجماعة الملحدين الرواد بمظاهرات لادينية صاخبة فى مواسم الأعياد الإسلامية ، ويهينون كل مايقدسه المسلمون .

بناء على كل ماسبق . . نتشرف برفع هذه الشكوى إلى هيئتكم الموقرة رجاء بحثها واتخاذ قرار فيها يرد لمائة مليون مسلم حقوقهم الطبيعية والإنسانية ويرفع عنهم هذه المظالم البشعة ، وليتمكنوا من الاشتراك مع غيرهم من بنى الإنسان فى بناء عالم أفضل يسوده العدل والحرية والمساواة ، ويكون أساسه تمتع كل شعب بحق تقرير مصيره .

هذا . . وتفضلوا بقبول فائق الإحترام » .

وفى الصين . .

ونفس ماحدث فى روسيا فى بداية الثورة البلشفية من محاولة استجداء عطف المسلمين ثم سحقهم بعد ذلك حدث فى الصين مما يؤكدعدم إمكان تعايش الماركسية مع الاسلام .

فعند ما قام «ماوتسى تونج» وأنصاره بحركتهم الشيوعية، عملوا على استرضاء المسلمين فى الصين ومحاولة احتوائهم بشتى الطرق والأساليب الخادعة حتى حتى أن «ماوتسى تونج» نفسه أصدر بيانا إلى الجيش والشعب سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧م) قال فيه :-

« إننا إذا لم نكسب المسلمين فى بلادنا إلى جانبنا ، فلن نستطيع أن نحقق شيئاً من أهدافنا ، وان نستطيع القضاء على اليابان ، أو على تشانج كاى شيك »(١) .

ولكن استرضاء المسلمين ومحاولة كسبهم إلى جانب الشيوعية الصينية لم يستمر طويلا، لأنه لم يكن هو الآخر إلا تدبيرا مؤقتاً، انكشفت بعده النوايا والخطط الشيوعية الحقيقية التى تهدف إلى سحق المسلمين والقضاء على كل مقدس لديهم .

نشرت صحيفة « تن بات باو » التى تصدر فى«هونج كونج» فى عددها

---

(١) حسن جوهر وعبد الحميد بيومى. الصين ص٩٤ (من سلسلة شعوب العالم عدد ٢ . دار المعارف بمصر) .

الصادر فى ١١ أكتوبر سنة ١٩٦٥ منشورا وجهه الحرس الأحمر فى الصين إلى المسلمين هناك . جاء فيه(١) :-

« يا رجال الحرس الأحمر المقاتلين :

إنكم تقومون بعمل حسن .

واصلوا عملكم .

أنتم مكافحون ضد البورجوازية والإقطاعيين الذين مصوا دماءنا ، وأكلوا لحمنا وعظامنا والآن جاء دورنا لامتصاص دمهم وأكل لحمهم .

يا رجال الحرس الأحمر :

لا يمكن أن ندع عدوا من أعدائنا يهرب ، وعلينا من الآن فصاعدا أن نهاجم أكثر الأعداء تخفيا — المسلمين — الذين يقومون بنشاط ضد الحزب ، وضد الصينيين تحت قناع الدين المزعوم ، ويختبىء أولئك المسلمون فى الجوامع ، وبتوجيه من الاستعماريين . كما تسيطر عليهم الدول الأجنبية ضد بلادنا وشعبنا العظيم وزعيمنا الجزيل الاحترام الرئيس ماو » .

ويوجه البيان كلامه إلى المسلمين فيقول : -

... من الآن فصاعدا لن يسمح لكم بأن تضعوا اقناعكم الدينى على وجوهكم ، سنطردكم وندمركم ، ومن اليوم فصاعدا لن يسمح لكم بأن تأكلوا لحم الأبقار لأن الأبقار تخدم الشعب

---

(١) راجع : محمد الغزالى . الإسلام فى وجه الزحف الأحمر .

يجب أن تأكلوا لحم الخنازير . يجب ألا تتكلموا اللغة العربية التى هى ضد اللغة الصينية ولن يسمح لكم بأن تقرأوا ما يسمى بالكتاب المقدس « القرآن » .

اسمعوا أيها المسلمون .

دمروا جوامعكم !!

حلوا المنظمات الإسلامية !!

احرقوا القرآن !!!

... ألغوا الحظر الذى وضعتموه على الزواج المشترك !!

كفوا عن الصلاة .

الغوا الختان .

ادرسوا أفكار ماو .

... إذا لم تندموا سنطردكم وندمركم .

يجب أن نسحق جحور الجرذان الدينية ، وندمرها معكم .

فلتحيا الثورة الثقافية الكبرى .

فليحيا طويلا طويلا طويلا الرئيس ماو » .

وفى شرق أوربا :

والصورة ذاتها خداع المسلمين على الورق وفى البيانات الرسمية للدولة وسحقهم فى واقع الأمر ومنعهم من مزاولة العبادة .

ففى بلغاريا ينص الدستور البلغارى فى المادة ٣٣ منه على :ـ

- البند (ب) لكل مواطن بلغارى الحق فى أن يعتنق أى دين يرتضيه .

- البند (و) لكل مواطن بلغارى يحمل اسما غير بلغارى الحق فى رفع قضايا جنائية فى حالة تعرضه للأذى أو الإهانه لمجرد حمله هذا الاسم .

وبالرغم من ذلك فإن ما تفعله الحكومة البلغارية فى الواقع مناقض تماما لهذا النص الدستورى بحيث لا تدخر وسعا فى محاربة المسلمين والتنكيل بهم ومحاولة جذبهم إلى الماركسية ومحاربتهم لتغيير اسمائهم من أسماء إسلامية إلى أسماء بلغارية ومنعهم من الزواج على الطريقة الإسلامية وهدمهم المساجد وحرقهم نسخ القرآن الكريم .

ولندع الوثائق والوقائع مرة أخرى تتحدث عما يلاقيه المسلمون فى بلغاريا من صنوف العذاب ، كما جاء فى وثيقة وزعها المسلمون البلغار عن طريق اتحاد الطلبة المسلمين فى شرق أوربا ، ووزعت فى ندوة الشباب الإسلامى العالمى فى الرياض / المملكة العربية السعودية فى سنة ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) جاء فيها : -

• فى مدينة « بلاقو يفقراد » Blagoivgrad طلب من جميع المعلمين المسلمين أن يغيروا أسماءهم الإسلامية أو أن يطردوا من ، أعمالهم ولا يسمح لهم بممارسة أى عمل فى أى جهاز من أجهزة الدولة الرسمية ، ورفض ١٦٥ معلماً مسلماً أن يغيروا أسماءهم ، ولذلك طردوا من وظائفهم ، ومنعوا من حق العمل فى بلغاريا موطنهم ومسقط رأسهم .

• عند بدء العام الدراسى ٧١ — ١٩٧٢ طلب من جميع تلاميذ المدارس المسلمين أن يغيروا أسماءهم الإسلامية، كشرط

لاستمرارهم كتلاميذ ، وإلا يطردوا من المدارس ورفضوا جميعهم وطردوا فعلا .

. صدرت أوامر فى المؤسسات الحكومية لجميع المسئولين الإداريين أن يقوموا بإجراءات حازمة لتغيير أسماء المسلمين العاملين فى المؤسسات ، وكونت جماعات بوليسية مسلحة من قبل وزارة الداخلية لمراقبة تنفيذ هذه الأوامر ومتابعتها حتى النهاية .

. تم القبض على مجموعات كبيرة من المسلمين ووضعوا فى معسكرات أعدت خصيصاً لهذا الغرض ، وساموهم أمر أنواع العذاب ، ومن عاد منهم فبرجل مكسورة أو يد أو أضلع مكسرات .

. تم حصار بعض القرى « كراستافا » ، (Krastava) وقرية « سرسلييبا » ، (Cersinia) فى منطقة ، بازرجيك (Bazargik) بانتهاك حرمات المنازل بعد أن حطموا الأبواب والنوافذ واقتحموها عنوة وقذفوا بأصحابها فى الخارج وقد لقى عدد كبير من النساء والأطفال حتفهم وكذلك الشيوخ من جراء الرصاص الذى أصلاهم به رجال الأمن الذين من واجبهم حفظ المواطنين ، وقد تعرض الكثير من النساء والأطفال لنهش الكلاب البوليسية ، وقد عارض كل المسلمين تلك الأوامر حتى الفتيات منهم مما أدى إلى إرسالهم إلى السجون .

ولإخفاء تلك الجرائم تم القبض على بعض المسلمين واتهموهم زورا وبهتاناً بارتكاب جرائم قتل المسلمين وحكم عليهم بالإعدام ونفذ فيهم حكم الإعدام .

• فى يوم ١٠ مايو ١٩٧٢ تحرك حوالى ٥ آلاف مسلم من منطقة بازارجيك (Bazargik) ومنطقة بلافو يفقراد (Blagoivgrad) وسموواين قراد (Smolengrad) فى مظاهرة احتجاج متجهين إلى صوفيا (العاصمة) وكان ذلك فى جوف الليل لكى لا يعلم بهم البوليس وقد ضم الموكب كل فئات المسلمين من الذين أعمارهم ١٥ إلى ٧٥ عاما وكان تحرك الموكب تحت ظروف قاسية وسط الأمطار الغزيرة والوحل .

وعلى بعد أميال قليلة من صـــوفيا ، وبالتحديد فى محطة « اسكارا » (Gara Iskara) علمت بهم السلطات وأرسلت لهم قوة ضخمة من الجيش والبوليس وحاصروهم بالدبابات والعربات المصفحة ونقلوهم إلى مدينة « بيلو » (« Belo) حيث وضعوا فى السجون حتى الآن .

• فى يوم ١٢ مايو ١٩٧٢ حوصرت قرية « إيلانسكو » (Ilansko) فى منطقة بلايوفقراد برجال البوليس تصحبهم الكلاب البوليسية ، فتصدى لهم المسلمون بشجاعة وبســـالة وقتلوا أحد رجال البوليس ، وكإجراء إنتقامى تم القبض على ٣٠ مسلماً وقدموا إلى محاكمات عسكرية أصدرت أحكامها التاليـــة : -

١ — صبرى محمد بوصيف (٣٩ عاما وأب لـ ٣ أطفال): الإعدام .

٢ — عبده إبراهيم شولاكوف (٢٩ عاما وأب لطفلين): الإعدام .

٣ — عمر إيلانسكي (٢٩ عاما وأب لطفلين): الإعدام .

٤ – جمال علي بونصيف (٢٩ عاما وأب لطفل): ١٥ سنة سجن .

٥ – يس إبراهيم فيصلوف (٤٣ وأربعين عاما وأب لـ ٤ أطفال) : ١٥ سنة سجن .

٦ – رجب إبراهيم شولاكوف (٣٠ عاما وأب لطفلين): ٨ سنوات سجن .

وصدرت ضد آخرين أحكام بالسجن لمدد متفاوتة .

• في يوم ١٣ مايو سنة ١٩٧٢ حوصرت « باكرودا » (Bakroda) حيث يشكل المسلمون نسبة ٨٠٪ من عدد السكان ، واقتحم الجيش منـــازل المسلمين عنوة واقتادوا المسلمين مكبلين بالسلاسل والقيود إلى مراكز الشرطة حيث طلب منهم أن يوقعوا على طلبات بتغيير أسمائهم تحت جو من الإرهاب والضرب والتهديد بالسجن والطرد من العمل .

وفي هذه الظروف القاسية تمكن الشهيد أمين محمـــد وفترينكوف من الهرب ، ولكن قوات الجيش طاردته وأطلقت عليه الرصاص فاستشهد وهو أب لطفلين في ٣٢ عاما من عمره .

• أوقفت جميع معاشات الذين تقاعـــدوا عن العمل ، وأغلقوا أبواب العمل أمام كل الذين رفضوا تغيير أسمائهم وحرموهم حق العلاج وهم لذين أفنوا شبابهم في خدمة بلغاريا .

• حدث في مدينة مدان (Mudan) أن وضعت امرأة مسلمة في أحد المستشفيات الحكومية وطلب منها رسمياً أن

تختار لطفلها اسما غير اسلامى فرفضت أن تستجيب لطلبهم ، فأخبروها أن هذا أمر حكومى ولابد أن تنفذه ، فعند ذلك رمت بطفلها بين أيديهم وتركته لهم .

• فى كثير من مناطق المسلمين حطموا المساجد، وكانوا فى الماضى قد منعوا الشباب من دخول المساجد والآن قد منعوا الشيوخ وكانوا ينتظرون موت أئمة المساجد ، فيقفلونها بحجة أن إمام المسجد قد توفى .

• فى قرية أسمها « بليز قور » (Blizgot) فى منطقة « كرجلى » Kargly حوصر منزل أحد المسلمين ، وكان قد تمكن من الهرب ولكن قوات الجيش أطلقت عليه الرصاص فاستشهد فى حينه .

• كثيراً مايهرب المسلمون من مناطقهم خاصة المثقفين منهم لكى لايقعوا فى يد السلطات .

الأشخاص الآتية أسماؤهم رفضوا تغيير أسمائهم ، وهددوا بالقتل فلم يرضخوا للتهديد وزجوا فى سجن مدينة « سليفانا » Slivana « قسم بلاينفسكو » Plevensko ، وهم : -

١ — صالح زلانوف .

٢ — حسن زابيتيف .

٣ — شريف حجى شريفون .

٤ — حسن أحمد وف حافظون (وهو من حفظة القرآن) هؤلاء من منطقة صحوليان (جنوب بلغاريا) .

١ — محمد عليف .

٢ — محسن بانكليف .

٣ — حسن أمير أنوق .

٤ — ابراهيم ابراهيموف .

هؤلاء من منطقة بلاغريتى قراد .

١ — رجب أحمد وف .

٢ — على محمد وف .

٢ — صالح تونوف .

(هؤلاء من منطقة بازار جيك :

١ — على رايف من مدينة زاز غراد » (١).

وقد ختم المسلمون البلغار نشرتهم تلك بنداء حار إلى المسلمين فى العالم خاصة الدول الإسلامية التى لها علاقات اقتصادية ببلغاريا أن يمدوا يد العون لإخوانهم فى بلغاريا ويرفعوا للأمم المتحدة ولجنة حقوق الإنسان هذه المظالم البشعة التى يرتكبها النظام الشيوعى البلغارى ضد المسلمين هناك .

ولسنا نريد أن نستقصى بعد ذلك أحوال المسلمين فى البلاد الماركسية فكلها لاتخرج عن النماذج التى قد مناها :ـ

— فى الصين حيث تحاول أن تطبق الماركسية تطبيقاً قريباً جداً من فكر ماركس .

---

(١) صوره هذه النشرة موجودة عندى لمن أراد الاطلاع عليها .

- وفى الاتحاد السوفييتى وحيث تدخل التعديلات على الفكرة الماركسية الأصلية .

- وفى بلغاريا حيث تبـــدو بلغاريا أو تحاول أن تبدو فى موقف المعتدل .

وفى كل هذه النماذج بتياراتها المتنوعة تتمثل مأســـاة المسلمين فى كل البلاد الشيوعية فى العالم .

والسؤال بعد ذلك هو : أين هو التوافق الذى يمكن أن يتم بين الماركسية والإسلام ، على النطاق الواقعى ؟

وإذا كان الماركسيون قد فشلوا فى إحراز هذا التوافق فى بلادهم . فهل يستطيع الماركسيون العرب والمسلمون أن ينجحوا فيما فشل فيه سادتهم وكبراؤهم ؟

القسم الثالث

مستقبل المواجهة بين الماركسية والإسلام

. أسباب انتشار الماركسية

. أسباب انهيارها بعد ذلك

. انتصار الإسلام

القسم الثالث

مستقبل المواجهة بين الماركسية والإسلام

أسباب انتشار الماركسية فى بعض البلاد الإسلامية:

استطاعت الماركسية أن تحرز لها عدة مواقع على الأرض الإسلامية جمعت فيها الأنصار ، وكونت الأحزاب ، والتنظيمات السرية والعلنية ، واستطاعت فى بعض البلاد الإسلامية أن تغير نظامها الاجتماعى والاقتصادى والسياسى من النظام القديم الذى كانت عليه تلك البلاد إلى النظام الماركسى ، وأخذت من هذا النظام الماركسى بدرجات متفاوتة ، فبعضها أعلن الماركسية فعلا ، وبعضها حاول أن يطور الماركسية حسب الظروف الدينية والاجتماعية والاقتصادية السائدة ، حتى لا يواجه بالرفض أو الثورة من المجتمع .

ومن ثم وجدت الاشتراكيات العديدة خاصة فى البلاد الإسلامية التى حال فيها الشعور الإسلامى المتأصل الجذور من ظهور الماركسية مباشرة وإعلانها صراحة . فكانت هذه الاشتراكيات مظهراً لثقافة السلطة الحاكمة ومعرفتها بالإسلام ، أو مرحلة من مراحل التدبير المؤقت ، أو التردد بين الماركسية والإسلام .

ولقد كانت هناك عوامل ساعدت على ظهور الماركسية وانتشارها فى البلاد الإسلامية التى انتشرت فيها .

ومن أهم هذه الأسباب :-

١ — التخلف والتفاوت الطبقى .

فقد عانت تلك البلاد من مظاهر التخلف الذى شمل الأمة الإسلامية فى العصر الحديث ، خاصة انتشار الفقر بين الغالبية العظمى من السكان ، واستحواذ فئة قليلة على مصادر الثروة ووسائل الإنتاج مما جعل الغالبية العظمى تضيق بالنظم القديمة وترى فيها سر الفقر والجور الواقع عليها ، ومن ثم كانت الثورة على هـــذه النظم وإذالتها محل ترحيب من الغالبية .

٢ - الفراغ الفكرى والعقائدى الذى أحدثه الجهل بالإسلام وحقائقه وبما يقدم من عدالة اجتماعية تعالج الفقر وتقضى على الظلم ، وتأخذ بيد المحرومين وتجعل لهم حقاً معلوماً لدى الأثرياء وتكفل لهم الحماية والأمن فى عيش رغد ومضمون .

وقد أضر الجهل بالإسلام هؤلاء الذين كانوا يبحثون عن علاج للتخلف فوقعوا فى أحضان الماركسية .

فهم يجهلون الاسلام من ناحية ، ويربطون بينه وبين سلوك المسلمين المنحرفين عن الإسلام ، ويخلطون بين مبادىء الاسلام وواقع بعض الناس الذين يمثلونه مما أفقدهم الثقة بهذا الدين فى الوقت الذى كانوا يتوقون إلى إصلاح الأوضاع الفاسدة .

ولو أن هؤلاء عرفوا حقائق الإسلام بقطع النظر عن سلوك المنتسبين إليه ، لوجدوا فيه حلول كل المشكلات التى عانت منها المجتمعات الإسلامية .

٣ - الخداع الشيوعى :

ويضاف إلى السببين السابقين وما نجم عنهما من آثار سلبية فى المجتمعات الإسلامية ، أن الشيوعية استغلت هذه الآثار ومظاهر التخلف ، واتخذت لنفسها صوراً عديدة لخداع الشعوب الإسلامية ، من أهمها :-

(ا) أن الشيوعية تزعم أنها طريق الكادحين ، وتظهر أول الأمر بمظهر الذى يعمل على إنصاف المقهورين الذين سحقهم الظلم الاجتماعى ، ولكنها فى الحقيقة هى التى تسحق جماهير الشعب بالكبت والإرهاب ، وتكميم الأفواه ، وتقتل فيهم كل طاقة شريفة ، وملكة منتجة .

(ب) ويمثل أسلوب الماركسية فى تعاملها مع حركات التحرير فى العالم صورة أخرى من صور الخداع فمن أجل احتواء هذه الحركات والسيطرة عليها وتوجيهها لخدمة الماركسية ، فإنها تبادر إلى مساعدتها بالمال والسلاح وبعض الإمكانات الأخرى ، لا من أجل نصرة هذه الحركات فعلا ، ومعاونتها على التخلص من الظلم والقهر، بل من أجل احتوائها، بدليل أنها بمجرد استقطابها لهـــذه الحركات وتكتيفها بالارتباط الاقتصادى والعسكرى فإنها تحاول أن تسيطر عليها وتوجهها الوجهة التى تريد وتتخذ منها مناطق نفوذ ، وحينئذ تكون أقسى عليها من كل عدو .

وبعض ما يجرى فى الساحة العالمية قريبا وبعيدا ، مصـــداق ما نقول .

(ج) ومن صور الخداع الماركسى المعتادة: أن الماركسيين يعرضون فكرتهم بشكل براق يخفى العيوب والمآخذ ، يستغلون أى تقدم لديهم ، دليلا يساند أفكارهم ، لكن الإنسان عندما يطلع على حقيقة الفكرة الماركسية وخباياها ، فإنه لا يملك إلا ان يردها جملة وتفصيلا .

(د) كذلك من صور الخداع أن الماركسية تتصيد أنصارها عن طريق اللعب بأعصاب الشعوب الفقيرة ، والمتاجرة بآلامها ومعاناتها ،

وتتخير من تراهم أكثر الناس تألما لأوضاع المجتمع وأكثر الناس تضررا بهذه الأوضاع ، فتغريهم وتمنيهم ، وقد تعطيهم من الرشاوى والأعطيات ما يسخطهم على كل حل غير الماركسية ، ويفجر طاقات الحقد لديهم على طبقات المجتمع ، فيفقد هؤلاء إيمانهم وثقتهم بالقيم والمعايير ، ويكونون أكثر الناس استعدادا للثورة على قيم المجتمع وتغييرها .

٤ — ويضاف إلى كل ما تقدم ، فساد النظرية الرأسمالية وعجزها عن أن تقدم الحل لمشكلات البشرية ، فضلا عن أنها أسهمت بالكثير فى تفاقم مشكلات الطبقة العاملة ، التى لا تملك رأس المال ويقع عليها فى الوقت نفسه عبء العمل وتتعرض لأخطاره ، بالإضافة إلى تعرضها لأخطار البطالة كلما تقدم العلم وتطورت المكائن والآلات ، فكلما أنتجت الثورة الصناعية آلة جديدة فإنه يستغنى فى مقابلها عن عدد من العمال ، وكلما ازداد عدد الآلات الجديدة كلما استشرت البطالة وكثر المتبطلون الذين لا يجدون ما ينفقون ، ولا يجدون ما يؤمنهم من آلام الحاضر وغوائل المستقبل ، مما ازداد معه بؤس هذه الطبقة ، وضيقها من هذا الوضع ، وتحفزها لتغييره فأتيحت الفرصة للماركسية .

٥ — وهناك سبب آخر لانتشار الماركسية فيما انتشرت فيه من العالم الإسلامى ، وهو سبب أساسى لا يقل أهمية عن الأسباب التى ذكرناها .

وهذا السبب يرجع - حقيقة - إلى المفكرين المسلمين أنفسهم ، فقد عجزوا - فى جملتهم - عن أن يظهروا نشاطا أكثر فى مواجهة التحدى الماركسى والرأسمالى على حد سواء ، إذ توانوا كثيرا عن أن يستنبطوا من الإسلام النظام الاقتصادى والسياسى الذى يستطيع أن يعالج مشكلات المجتمع ، ويداوى تخلفه ، ويحل تناقضاته ، بشكل يريح صدور المؤمنين ،

ويقطع السبيل أمام تردد المترددين وجهلهم بحقائق الإسلام ، ويضع حرص الحريصين على مجتمعهم فى مكانه الصحيح ويوجههم الوجهة الحقة النافعة، بدل أن يتخبطوا فى متاهات النظم والأفكار المستوردة التى تغزو المجتمع الإسلامى من الشرق والغرب .

ولئن كنا نسجل على المفكرين المسلمين عجزهم فى هذه الناحية فإن الإنصاف يقضى بأن نسجل بأن بعض العجز كان بسبب بعض النظم التى دأبت على اضطهاد العلماء وزحزحتهم عن توجيه مجتمعاتهم، ولم تترك الفرصة لحركات الإصلاح أن تنضج أفكارها على مهل فى مواجهة التيارات الغازية ، بل إن بعض النظم اضطهدت الحركات الإصلاحية وقاومتها وأضعفت المؤسسات الدينية وأعجزتها عن أداء رسالتها فى الوقت الذى احتضنت فيه الماركسية وشجعتها ووضعت أنصارها موضع القيادة والتوجيه ، مما أوجد فرصا كثيرة أمام الماركسية فى هذه المجتمعات .

انهيار الماركسية :

كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى ظهور الماركسية فى بعض البلاد الإسلامية ، ومع ذلك ، فإن الاتجاه إليها فى العالم العربى والإسلامى آخذ فى التقلص عما كان عليه قبل خمس عشرة سنة .

وهناك من الأسباب الموضوعية ما يؤكد فشل الماركسية فى مستقبل المواجهة ، وحتمية انتصار الإسلام .

ومن أهم هذه الأسباب :-

١ - ما ظهر من أثر التيارات المادية فى العالم بشكل عام ، وفى العالم الإسلامى بشكل خاص .

ذلك أن هذه التيارات المادية التى اهتمت بالمأكل والملبس والمسكن ، أو بعبارة أخرى اهتمت ببطن الإنسان ومظهره دون أن تهتم بقلبه وروحه، فأهملت جوهر الانسان والحياة الإنسانية مما أفقد العالم روح الاستقرار والسكينة وجعل الإنسان المعاصر نهبا للقلق والأزمات العديدة دون أن يجد فيما حوله من ألوان الترف المادى ما يغنيه عن نعمة السكينة ، وسلام النفس .

وقد ساهمت الماركسية أكثر من غيرها فى هذا العصر فى شقاء الانسان وإضاعة ما تبقى له من طمأنينة فى ضجيج التطور المادى الصاخب، لأنها مسئولة أكثر من غيرها عن ضياع أصل الدين والأخلاق وانتزاعه من قلب الإنسان المعاصر،وكان الدين والأخلاق يمثلان البقية الباقية فى الضمير الإنسانى عن أصل الوجود وسر الحياة ومعناها وهدفها ومستقبلها وواجب الإنسان فيها ، وغير ذلك من الأمور التى تؤدى إلى توازن القوى الإنسانية واستقرارها وتدفع الإنسان من داخله إلى مراعاة القواعد العامة والقيم ، ابتغاء المثل الأعلى الذى يبعث الإيمان به على كل عمل شريف ويمنعه من الاخلال بالواجب . فلما عصفت الماركسية بهذه المعانى الروحية، عصفت فى الوقت نفسه بما تبقى للإنسانية من مبدأ شريف ، ولم تغن المبادىء والقيم الاشتراكية التى نادت بها الناس فى شىء .

ومصداق ذلك ما نراه فى العالم الآن ، من الأزمات المتنوعة فى كل مجال ، وحركات القلق والخروج على قواعد المجتمع ، وتزايد حركات المنشقين هنا وهناك .

ولئن استطاع العالم تحمل ذلك فى الوقت الحاضر فلسوف يعجز عن تحمله فى المستقبل القريب ، مما يجعل انهيار المادية عامة ، والماركسية خاصة أمرا مؤكدا وقريب الوقوع .

وإذا كانت آثار التيارات المادية فى العالم على هذا الشكل وبهذه الخطورة ، فإنها فى العالم الإسلامى أكثر تأثيرا وأشد ضررا .

١ - فلقد تسببت التجارب التي قامت في البلاد الإسلامية على أساس مادي أو علماني في تعويق تقدم العالم الاسلامي، ولم تزده إلا تخلفا، لأن الشعوب الإسلامية ذات حاسة دينية متأصلة في نفوس أبنائها ولا يحركها إلى العمل والإنتاج إلا الإسلام، لأنه وحده الذي يتوافق مع التركيب النفسي لهذه الشعوب .

وكم من الشعوب الإسلامية حاولت أن تنهض على أساس لا يجعل الإسلام فلسفة النظام وأساسه، فلم يجدها ذلك نفعا بل تعقدت مشكلاتها وتضخمت، بينما سبقتها شعوب أخرى، كانت أكثر تخلفا منها .

ولقد دلت تجارب التاريخ الإسلامي والعالمي أنه إذا كانت بعض الأمم تصلح لها بعض الإيديولوجيات والأنماط الإنسانية. فإن الأمة الإسلامية بالذات لا يصلح لها شيء من ذلك، ولا تصلح هي الا بالاسلام

وأقرب التجارب في هذا المجال تجربة الأخذ بالحضارة الغربية وعزل الدين عن الدولة، فقد استطاعت هذه الحضارة أن تجعل بعض الأمم تحرز كثيرا من التقدم خاصة التقدم المادي كاليابان مثلا، مع أن هذه الحضارة لم تحدث الأثر نفسه في بعض الشعوب الاسلامية التي اخذت بنظام عزل الدين عن الدولة، مثل تركيا، مع أن تركيا أسبق من اليابان في الأخذ بهذا النظام

وإذا كانت الشعوب الإسلامية لم تحرز التقدم عن طريق النظام الغربي لمجرد أنه يعزل الدين عن الدولة فإنها عن طريق الماركسية كانت أكثر فشلا، لأن الماركسية لا تكتفي بعزل الدين عن الدولة كالنظام الغربي بل تكفر به وتلحد في آيات الله، ومن ثم فهي أكثر اصطداما بالنفسية المسلمة .

- قد يكون ذلك لأن الشخصية الاسلامية عرفت الوحى فهى لاتذعن فى حياتها لما هو أقل منه ، بينما لا تعرف الشعوب الأخرى مثل هذا الوحى من قبل هذه التجارب .

- وقد يكون ذلك لأن النفسية العربية خاصة طبعت على الأنفة والترفع عن أن تحكم باسم البشر ، وهى ترى فى أن تحكم باسم الله شفاء لهذه الأنفة وارضاء لها

- وقد يكون لأسباب أخرى مما ينبغى أن يتخذ موضوعا لدراسة عميقة من لدن رجال التاريخ والاجتماع .

لكنها عبرة التاريخ على كل حال ، وهى : اطراد التخلف فى الشعوب الاسلامية مع اطراد الأخذ عن التجارب المادية ، وجعل هذه التجارب أساس النظام .

٢ - وبالإضافة إلى أن التيارات المادية تسببت فى تأخير التنمية والتقدم فى العالم الاسلامى ، فقد تسببت أيضا فى تكريس التجزئة بين المسلمين ، وجعلتهم أدوات للقوى العالمية المتصارعة .

فقد أدى الأخذ بالنظرية الغربية وجعلها أساسا للحياة الاجتماعية والاقتصادية فى بعض الدول الإسلامية ، إلى أن أصبحت هذه الدول أداة للغرب فى مواجهة المعسكر الشرقى ، كما أدى أخذ البعض الآخر من الدول الإسلامية للماركسية إلى اتخاذها أداة للكتلة الشيوعية فى مواجهة مايسميه بالخطر الامبريالى الغربى .

وهكذا صارت بعض الشعوب الإسلامية أدوات فى الصراع العالمى الذى لا تملك أسلحته بقدر مايملك الغرب أو الشرق ، وأصبحت مهمة الاستقلال الفكرى والسياسى والاقتصادى أكثر صعوبة أمام الدول

الإسلامية الأخرى ، التى تريد أن تكون بمنأى عن هذا الصراع .

كل ذلك يبشر بانهيار هذه التجارب المادية، والماركسية منها بشكل خاص فى العالم الإسلامى ، الذى بدأ يدرك بوضوح أن الذى يساعد شعوبه على الاستقلال الفكرى والعقائدي والسياسي والاقتصادي إنما هو اعتصامها بدينها وتراثها .

٣ — على أن فشل الماركسية ، وانهيار المادية عامة ليس راجعا فقط إلى ما أحدثه من فراغ فكرى ، وضياع أخلاق ، وفشل فى الإنتاج ، وتبعية فى المجال الدولى ، بل إن فشلها يعود إلى أكثر من ذلك : إلى التطور العلمى ذاته ، ذلك التطور الذى تجاوز المادية وكشف عن بطلانها ، وكان بذلك ضربة فى الصميم لكل المذاهب المادية التى ادعت طويلا أنها مذاهب « علمية » ، وكانت ترمى غيرها من المذاهب والفلسفات والأديان بأنها « غيبية » فإذا بالعلم يبطل كل هذه الادعاءات ، ويثبت علميا بما لا يقبل الشك أن نصيب المذاهب المادية من « الغيبية » ليس بأقل من نصيب المذاهب الأخرى ، فى نهاية الأمر .

والفضل هنا يبقى للمذاهب التى كانت تتحدث من قبل عن الغيبيات على أنها حقائق لا يسع العقل الإنسانى إنكارها ، بينما كانت المادية تنكر الغيب تماما ، ولا تنى أو تتردد فى هـــذا الإنكار ، فإذا بحقائق العلم تضطرها اضطرارا إلى التخفيف من هذا التسرع كما تضطرها اضطرارا أكثر إلى الإيمان بالغيب بعد أن صدمت فى حقائقها الأساسية التى كانت تراها بعيدة عن أى شك .

ذلك أن حقائق المادية كانت تقوم على أساس أن المادة هى : كل ماله جرم يحس أو يقاس، وكان الوقوع تحت الحس والقياس هو العلامة المميزة للشيء المادي ، عما هو غير مادى ، فإذا بالتطور العلمى يثبت أن المادة تخرج

عن نطاق الحس والقياس إلى نطاق الفروض التي هي أشبه بالرجم بالغيب .

فقد كان الناس يقيسون امتداد المادة في الزمان بالعام أو الشهر والساعة والثانية ويقيسون امتدادها في المكان بالكيلو والمتر وأجزاء المتر مما يصل إلى ١/١٠٠٠ منه .

ولكن مع التطور العلمي الذي انتهى إلى الوصول إلى أجزاء المادة وذراتها توصل إلى مقاييس أخرى أشد لطافة ودقة من المقاييس السابقة، بدءا من الوصول إلى النقطة الهندسية التي توصف بأنها شيء لا طول له ولا عرض ولا عمق ولا اتساع ولا امتداد، إلى الوصول إلى مقاييس أخفى، حتى وصل العلم اليوم إلى القياس بوحدة الأنجستروم Angstrom وهو قياس واحد على عشرة آلاف من الميكرون Micron وهو جزء واحد من مليون جزء من المتر(١) ، وهل هناك في عالم الاكتشافات مقاييس أدق من ذلك؟ إنها مقاييس ومقيسات أشد خفاء من خفاء الروح ودقة الأفكار ؟

وأكثر تحديا للمادية وأوضح بشارة على انهيارها ما كشف عنه تفجر الذرة وتوالى تفجرها إلى أن تفنى في عظمة الأثير ، لأن المقاييس مهما دقت وخفيت فلها فرض في الذهن يوحي بمحدوديتها وانحصارها حتى ولو وصلت إلى « الميكرون » أو جزء من عشرة آلاف مليون جزء من المتر ، وحتى لو كان هذا الانحصار في الذهن فقط دون الواقع المحسوس

---

(١) أنظر: عباس العقاد . الإسلام والحضارة الإنسانية ص ٥٥ منشورات المكتبة العصرية . بيروت – صيدا . لبنان .

أما وصول المادة إلى الأثير فمعناه وصولها إلى الغيب اللامحصور واللامحسوس، فى الواقع وفى الذهن جميعا .

إن الأثير هو الغيب المجهول الذى يعلل العلماء به الآن فناء المادة فى ما هو غير معروف .

لقد ظلت المادية تتلون وتتراجع مع كل تطور علمى وتتنازل عن حقائقها شيئا فشيئا ، وكان إنجلز يقول إن « المادية مجبرة على أن تأخذ وجها جديدا لدى كل اكتشاف جديد كبير(١) » وقد قام لينين بأكبر الأدوار فى محاولة تلاؤم المادية مع المنجزات العلمية الكبيرة منذ إنجلز(٢) .

ومع ذلك فشلت المادية فى أن تبقى مستقلة متماسكة بحقائقها التى كانت تزعم أنها نتاج العلم الواقعى التجريبى .

يقول « ليبيون » :ـ

« إن عناصر الذرات التى تنحل تفنى تماما ، فهى تفقد كل صفة المادة ، بما فى ذلك الثقل ، وهو أكثر صفاتها أساسية . . . ذلك أن الميزان يعجز عن وزنها ولا شىء يستطيع أن يعيدها إلى حالة المادة فقد اختفت فى عظمة الأثير . . والحرارة والكهرباء والضوء تمثل آخر مراحل المادة

---

(١) ستالين ، أسس اللينينية ص ٣٢ : نشر الشركة اللبنانية للكتاب . .

(٢) المصدر السابق . نفس الموضع .

قبل اختفائها فى الأثير »(١) .

ويعرف العلماء الأثير ، فيقول « سالسبورى » : « ليس الأثير إلا اسما على الفعل « يتموج » ، ويقول الأستاذ « أدنجتون » : ليس الأثير نوعا من المادة فهو لامادى » .

وهكذا أفلتت المادة التى كانت تعرف بكتلتها المحسوسة من أيدى الماديين واضطروا فى النهاية إلى الاعتراف بعدم الفصل بين المادية والمثالية ولم يبق هناك محل لإنكارهم القديم لكل ما هو مثالى بأنه غيبى لا وجود له .

٤ - والأمر الآخر الذى يجعل المستقبل يتخلى عن الماركسية ، أنها فقدت مبررات وجودها .

فمن المعروف أن كارل ماركس الذى عاش فيما بين سنتى ١٨١٨ - ١٨٨٣ م قد دفعه روح القلق فى ذلك القرن (التاسع عشر) إلى وضع مذهبه .

ونحن وإن كنا لا نرى كبير فائدة تعود على القارىء من وصف « كارل ماركس » بالأنانية والحقد وغير ذلك من الصفات النفسية السيئة(٢) فقد سجل له آخرون عكس هذه الصفات كما سجلوا له موقفه من رفضه التعاون مع بعض الصحف الأوربية رغم حاجته إلى الفقر ،

---

(١) عبد الحليم خفاجى - حوار مع الشيوعيين ص ٧٦ وما بعدها وراجع : عباس العقاد . عقائد المفكرين .

(٢) راجع : عباس العقاد . الشيوعية والإنسانية .

ورفض ما عرض عليه « بسمارك » وما عرضته الحكومة البروسية (١) .

ومع رغبتنا فى الموضوعية والحيدة فى تناول هذا البحث فنحن نلاحظ تألم كارل ماركس للمظالم التى كانت تعانى منها الطبقات الفقيرة فى عصره ، ولقد كتب فى كتابه « رأس المال » يقول إن هناك من الأطفال من لم يكن يتجاوز من عمره السابعة من السنين وعشرة شهور وكان يعمل من السادسة صباحا حتى التاسعة مساء (أى ١٥ ساعة فى اليوم » (١) .

إلا أننا نسجل أن كارل ماركس أراد أن يحل مشكلة الطبقات الفقيرة فى عصره ، فى مسألة العمل والغذاء والكساء ، فأورث الإنسانية كلها مشكلة أكبر ، فى فقر الروح وخواء القلب وفقدان الحل الأمثل لمطالب البدن والروح فهو من ناحية لم يضع الحل الاقتصادى السليم للبشرية ، ومن ناحية أخرى زج بها فى متاهات الإلحاد المظلمة التى يفتقد فيها الإنسان كل معنى للحياة ، وكل أمل فى المستقبل .

لقد أفزعته كارل ماركس لقمة العيش التى كان يفتقدها الفقراء فوضع مذهبه لبملأ بطن الإنسان ولكنه خرب الضمير وأفسد الحرية . ولم يستطع أن يحقق الشبع .

كان كارل ماركس يفتقد الاستقرار والسكينة فى روحه كما كان يفتقدها فى عصره .

---

(١) د . عبد الحميد متولى : الإسلام ومبادىء نظام الحكم ص ٢٧٣ عن : جارودى : كارل ماركس ص ٢٨٠ وإيسابرلين : كارل ماركس ص ١٥١ ويلاحظ د : متولى أن هذا الأخير كان ممن يوجهون إلى ماركس نقدا مرا .

لقد ولد من بوين قلقين مترددين بين اليهودية والبروتستانية حيث كانا يهوديين ثم اعتنقا البروتستانتية قبل أربع سنوات من ولادته . ولما درس الفلسفة أعجب بنظرية هيجل المثالية ، ولكنه ما لبث أن أنكر إسراف هيجل فى المثالية واعتنق الفلسفة المادية(١) ، ثم أخذ منهج هيجل المثالى وحاول أن ينشىء على أساسه مذهبا ماديا ، فكان من الطبيعى أن تنعكس هذه الصورة القلقة على المذهب ذاته ويكون المذهب نتاج هذا القلق .

نعم لم يكن ماركس ومذهبه إلا صورة من عصره ، فقد كان القرن التاسع عشر هو عهد سيادة رأس المال واتساع الاحتكارات ، وما صاحب ذلك من مظالم أرهقت الطبقات العاملة ، فى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة لا تبدى أى اعتراض على هذه المظالم ، بل على العكس كانت الكنيسة تشارك فيها وتبررها ، ثم كانت ضعيفة فى مقاومة موجات الإلحاد التى جاءت رد فعل للقهر الاجتماعى والتسلط الدينى فى القرون الماضية .

والآن لم تعد هذه الظروف كما كانت من قبل .

فالرأسمالية أدخلت عليها تعديلات كثيرة خففت من المظالم التى كانت موجودة فى القرن التاسع عشر . وبذلك حلت بعض مشكلات المجتمع الرأسمالى ، وإن تكن قد جدت مشكلات جديدة .

والكنيسة من ناحية أخرى نشطت فى مقاومة الإلحاد أو بعبارة أصح نشطت فى مقاومة النزعات الشيوعية أكثر من ذى قبل .

وبذلك تغيرت الظروف التى ولدت النظرية الماركسية والظروف التى شجعتها على الانتشار .

---

(١) يوسف كرم . تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٤٠١ دار المعارف بمصر .

٥ — والتراجعات التى يحفل بها تاريخ الماركسية دليل آخر على انهيارها فى مستقبل المواجهة بينها وبين الإسلام، وبينها وبين التجارب الأخرى فى العالم، فلم يشهد تاريخ التجارب والأفكار الإنسانية فكرة أكثر تراجعاً من الماركسية.

لقد تراجعت الماركسية كثيراً فى المبادىء والوسائل الأساسية كما أدخل عليها كثير من التعديلات مما بعد بها كثيراً عن أفكار ماركس.

ففى المبادىء: رأينا كيف تراجع «إنجلز» عن فكرة العامل الاقتصادى ودوره الذى كان يزعمه ومارکس فى تحريك مسار التاريخ وتطورات حوادثه واعترف بأنهما كانا مخطئين(١)

وفى الوسائل: فإن التجربة الماركسية تنازلت كثيراً فى مجال التأميم، إذ أنه عندما قامت الثورة الشيوعية فى سنة ١٩١٧ م أممت جميع وسائل الإنتاج والبنوك وسائر الملكيات الكبيرة والصغيرة، ولكن لم تمض أربع سنوات على هذه التجربة حتى لوحظ تقاعس العمال فى أدائهم للعمل وانخفض مستوى الإنتاج إلى خمس ما كان عليه وازداد التضخم، وانخفضت العملة ١٪ فأعلن «لينين» يوم ٢٩ من مارس سنة ١٩٢١: إلغاء الاستيلاء على فائض الإنتاج.

وبعد ثلاثة أيام: أعلن حرية التجارة الداخلية.

وفى ١٧ من مايو سنة ١٩٢١ م: صـــرح لصغار المنتجين أن يبيعوا منتجاتهم لحسابهم.

وفى ٧ من يونيو سنة ١٩٢١ م: ألغى تأميم كل المؤسسات الصناعية التى لا يزيد عدد العمال فيها عن عشرين عاملا.

---

(١) أنظر ص ٧٥ و ٧٦ من هذا الكتاب.

وفى ١٠ من يوليو سنة ١٩٢١م : أتيح للأفراد والشت أن كانقمهم مصانع علكة لها ملوكة فردية(١) .

بل إن الدستور السوفييتى الجديد نص على حق الملكية الشخصية والإرث كما يحدده القانون فقال :ـ

« إن حق الملكية الشخصية للمواطنين فى دخلهم وتوفيرهم الناجمين عن عملهم ، فى مساكنهم ، واقتصادياتهم بيئتهم الإضافية وفى الحاجات والأدوات المنزلية ، وفى الأشياء ذات الاستعمال الشخصى والراحة ، وكذلك حقهم فى إرث الملكية الشخصية حق مصون بموجب القانون »(٢) .

ولم تقتصر هذه التراجعات والانتكاسات على فكرة المادية التاريخية وفكرة التأميم ، بل تعدت إلى أفكار رئيسية أخرى ، فبعد أن كانت الفكرة الأساسية فى التوزيع تقول « من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته » وكانت تعنى التسوية الظالمة فى الأجور بين العمال دون نظر إلى كفاءتهم وامتيازاتهم ، مما ترتب عليه التهاون فى العمل رغم الرقابة الشديدة والإرهاب الصارم ، ولذلك عدلت هذه الفكرة إلى « من كل حسب حاجته ، ولكل حسب طاقته » ، وأعلن « ستالين » سنة ١٩٣٤ م التفاوت فى الأجور قائلا : —

« إن هؤلاء يحسبون أن الاشتراكية الشيوعية تستلزم المساواة فى الأجور .

---

(١) يوسف كمال محمد ، مستقبل الحضارة بين العلمانية والشيوعية والإسلام ص ٤٦ .

(٢) عن المصدر السابق ص ٦٨ .

ألا ما أسخفه من رأى !

« إن المساواه التى نادوا بها أضرتنا أكبر الأضرار »(١)

وتعدى التراجع ذلك كله إلى علاقة الشيوعية بالرأسمالية، والعالم الرأسمالى، فبعد أن كان أساس هذه العلاقة هو: الصراع الذى لا بد منه لكى تنتصر الطبقة العاملة « البروليتاريا » ويقضى تماما على فكرة « الفردية » أصبحت هذه العلاقه فى السنين الأخيرة تتسم بالمحاولات الملحة لخطب ود العالم الرأسمالى، وإقامة علاقات « الوفاق » بدل « الصراع » حتى أن « بريجنيف » نفسه سكرتير عام الحزب الشيوعى السوفيتى، حاول بنفسه مع أصحاب رءوس الأموال، فى الولايات المتحدة الأمريكية، لإغرائهم وإقناعهم باستثمار رءوس الأموال الأمريكية فى استغلال حقول الغاز فى « سيبيريا » وسائر النشاطات الاقتصادية الأخرى فى الاتحاد السوفيتى.

وختام الانهيارات التى اكتشفت أخيرا فى الماركسية : هو ذلك الانهيار الكبير والتراجع الذى يلغى الفكرة من أساسها وهو تراجع أو ارتداد « ماركس » عن الإلحاد .

لم يستطع « ماركس » أن يثبت على بنائه الفلسفى الذى شاده على أساس الإلحاد، واعتبار الله خرافة، والدين أفيون الشعوب، مما يؤكد صدق دعوانا فى هذا الكتاب : أن الماركسيه فى مواجهة الدين لم تكن إلا تسرعا فى إنكار الدين، تسرعاً طائشا مجازفا، دون روية ودراسة .

لم تستطع الماركسية أن تثبت على هذا الموقف المادى الإلحادى، بل تراجعت، لا بعد ماركس، وإنما فى حياته هو، وعلى يديه نفسه إلى درجة

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٤

أنه تحول من رفض المتدينين ، إلى الارتداد عن هذا الرفض، بل تحول من موقف السخرية من المتدينين ، إلى السخرية من الملحدين .

وقد سجل هذا الارتداد والتراجع الأستاذ الدكتور رشدى فكار ، - وهو متخصص فى الماركسية - بعد متابعة متأنية ، ودراسة مستخلصة من البراهين والوثائق ، لتطور فكر ماركس نفسه ، فى مراحله المتقلبة المتضاربة .

وقد تحدث الدكتور رشدى فكار عن بحثـــه عن « ماركسية الرفض والارتداد » فقال إنه :

« جاء مدعماً بالبراهين والوثائق ، وأبرزنا فيه كيف أن ماركس فى مرحلته الأولى (ماركسية المنطلق والأصول) تبنى أساساً مبـــدأ الرفض للدين ، لارفضاً فلسفياً ، ولكن رفضا سياسياً ، حيث انبرى لدوره فى بنية المجتمع ووصفه بأنه دور سلبي وقف إلى جانب المستغل (بكسر الغين) وصنفه بين الإيدلوجيات الاستلابية ، التى تمارسها البنية الفوقية للمجتمع كمخدر تبريرى .

واستمر فى موقف الرفض هذا ، تحت تأثير فيورباخ واليسار الهيجلى من بوير ، وكوبان ، إلى موزيس هيس ، وجانز وروج وغيرهم ، وحتى انعكاسات فكر كندرسيه .

غير أننا لاحظنا تحولا تدريجياً منذ سنة ١٨٤٤ عند ماركس الناضج وموقفه من الدين ، وحاولنا أن نبحث عن سر هذا التحول ، ولم نستبعد التأثير الفرنسى من خلال مدارسه الاجتماعية ، ومدرسة سان سيمون بصفة خاصة ، حيث تصدى

ماركس باسمها ، ليفند آراء كثير من المفكرين الألمان لأنهم لم يفهموا سان سيمون ، أمثال جران وشتاين ، فقد وضع ماركس مؤلفا يرد فيه عليهما .

ثم كانت طلائع أو إرهاصات الارتداد عند ماركس ، عن موقفه حيال الدين والإله : « الإلحاد — يقول ماركس — لامعنى له ، لأنه إنكار للإله بلامبررات، اللهم إلا إذا كان الهدف أن يحل الإنسان محله » .

ويكرر ماركس نصا : — « الاشتراكيه : ليست فى حاجة إلى مثل هذه الشطحات التجريدية الجوفاء ، والمضاربة على الإله »(١) .

ولعلنا نتذكر هنا ماقلناه عن « روجيه جارودى » ، من أنه يمثل أزمة الفكر الماركسى فى أوربا ، حين اهتدى إلى ضعف الماركسية فى مواجهة الدين ، ودعا إلى الحوار مع الأديان ، وإن كان التزامه بالماركسية جعله ، فى الوقت نفسه يقول ، إن القول بأن الدين أفيون الشعوب ، قول تؤيده التجربة ، ولكنه لا يلخص موقف الماركسية من الدين(٢) .

ولقد كشف لنا الدكتور رشدى فكار ، سر موقف جارودى وعلته ، وهى عثوره على براهين ارتداد ماركس ، ونصوصه فى هذا الصدد ، لكنه لم يكن شجاعا ، فى الاعتراف بتراجع ماركس ، ووضع هذه النصوص موضعها الصحيح .

يقول الدكتور فكار : -

---

(١) الدكتور رشدى فكار ، فى الماركسية والدين ص ٢٢ .

(٢) انظر صـ ٩٦ من هذا الكتاب .

« ولقد استعمل « روجيه جارودى » هذه النصوص فى محاجاته وتعليقاته الأخيرة مع « موريس كلافيل » كما استعمل بقيـة البراهين الأخرى التى تؤكد بالنسبة لنـا الارتداد ، وبالنسبـــة له — أى جارودى — « المرونة الفكرية عند ماركس » وإن كنا فى الجوهر متفقين على تغير الموقف عند ماركس : إرتداد أم مرونة ؟ نفضل بالنسبة لنا ، وباسم الأمانة العلمية أن نسمى الأمور بمسمياتها ، خصوصا فيما يعنى هذا الموقف الذى له أهمية خاصة »(١) .

ويوالى الدكتور فكار براهين التراجع عند ماركس من واقع الوثائق فيقول :ـ

« أما بقية براهين الارتداد فمنها :ـ

— رسالة « ماركس » المشهورة الموجهة للبابا بمناسبة رفضة الدخول فى « الحلف المقدس » وانطوائه تحت لوائه : حلف هؤلاء الذين شوهوا جوهر الدين حين اتخذوا منه « شرطة » روحية » فى خدمتهم ، والدين منهم براء .

هنأ « ماركس » البابا على موقفه الذى ينطلق عن إيمان ووجدان أصيل عميق .

— كما أن « ماركس » هاجم « فيورباخ » نفسه ، وهنا نصل إلى وضوح الارتداد لديه ، حين وصفه لفيورباخ بأنه : « جعل من الوجدان والروح الدينيه شيئا راكدا جامدا ، لا قدرة فيه أوله على التغيير .

(١) المصدر نفسه ص ٧٣ .

- ولعل أقوى براهين الارتداد عند ماركس : تقييمه مع «إنجلز» لموقف رجل الدين « مانزر » فى حرب الفلاحين (١) وثنائه على دوره الخلاق الواعى ، كرجل دين ثورى مصلح »

أما عن سخرية ماركس من الملحدين فيقول الدكتور رشدى فكار : -

« وبعد ثلاثين عاما - سنة ١٨٧٤ - من تاريخ موقف الرفض يأتى ماركس الناضج ليعلن ما هو متجاوز للارتداد ، ونعنى بذلك ذهابه إلى حد السخرية الصريحة من الملحدين ، ممثلين فى جماعة من المهاجرين البلانكيين (نسبة إلى « لويس أوجست بلانكى» ١٨٠٥ - ١٨٨١) السجين الدائم وأحد المسئولين عن أحداث سنة ١٩٤٨ فى فرنسا ، لا « أدوان بلانكى » شقيقه (١٧٩٨ - ١٨٥٤) كما التبس على البعض

لقد سخر ماركس من الملحدين البلانكيين الذين حاولوا - حسب تعبير ماركس نصا أن يصيروا البشر ملحدين عن طريق توزيع الفتـــاوى ، يالها من مهزلة ! ولاشك أن قمة البراهين المؤيدة الارتدادالصريح عند « ماركس » هذا البرهان الأخير الذى يتجسدفى النص الصريح الذى نورده وقد استشهد به « جارودى » أيضا فى تبرئة ساحة « ماركس » من التطرف والاتجاه به إلى الحوار .

وهذا النص حرفيا يقول فيه « ماركس» : « إن الالحاد قد عاش وقته ، وأنه تعبير سلبى لايعنى شيئا بالنسبة للاشتراكيين

---

(١) نفس المصدر ص ٢٣

الأصلاء . . . إن المعنى لديهم ليس هو إنكار الإله وإنما تحرير الإنسان(١) » .

وإذا كان هذا الارتداد الماركسى يمثل فى نظر الدكتور «رشدى فكار» إطارا لإعادة النظر والحوار مع الدين كما يقول : -

« ولقد شكلت هذه التساؤلات حول الارتداد الماركسى عند ماركس إطارها ما للتأمل وإعادة النظر حاليا على مستوى إمكانية الحوار مع الدين ، انطلاقا من مبدأ الاجتهاد والوعى بماركس من خلال ماركس ، لا من خلال المغالطات والاشكليات والمضاربات الأهوائية التى تتم باسمه لدى من يتقمصون رداء الحقد والمكابرة على الدين ورجاله(٢) » .

فإن هذا الاتداد يمثل فى نظرى شيئاً آخر .

إن الدعوة إلى الحوار بين الماركسية والدين التى يدعو إليها الدكتور فكار - وهو من المتخصصين فى الماركسية من غير الماركسيين - دعوة يدعو إليها أيضاً بعض الماركسيين ، من أمثال جارودى ، كما تدعو إليها بعض الأحزاب والتنظيمات الماركسية ، كتدبير مؤقت ضد الدين .

إننا فى حاجة إلى أن نحدد أولا : أى ماركسية تلك التى سيجرى الحوار بينها وبين الدين ؟

هل هى ماركسية المغالطات والشكليات والمضاربات الأهوائية لدى

---

(١) نفس المصدر ص ٢٤

(٢) المصدر نفسه . نفس الصحيفة

من يتقمصون رداء الحقد والمكابرة على الدين ورجاله ؟ وهذا الشكل من الماركسية هو المعروف فى العالم الآن عن النظم الاجتماعية فى الدول التى تطبق الماركسية .

أم هى ماركسية ماركس حقا ؟ ولا يمثلها إلا بعض الماركسيين المتعمقين فى معرفة الماركسية ، وسبر أغوارها ، وهم قلة منبوذة . من الأحزاب الشيوعية .

كما أننا فى حاجة إلى معرفة الأساس الذى يمكن أن يقوم عليه هذا الحوار .

إن الدين لا يرضى بأقل من قبول مبدأ الايمان بالله، الذى هو جوهر الأديان. هذا إذا لم تكن هناك مطالبة بتحديد ماهو الدين الذى يتم على أساس قبوله الحوار ؟ .

وهل ستعدل الماركسية مبادئها الأساسية ومناهجها ووسائلها على أساس الإيمان بالله ؟

وحينئذ: ما اسم هذا الشىء أو المذهب أو النظام الذى يمكن أن يفرزه هذا التعديل ؟ .

ألا يكون مرة أخرى اشتراكية طوباوية أو خيالية أو وهمية كما كان ماركس والماركسيين بعده ، يطلقون على الاشتراكيات غير الماركسية أو يكون هذا الشىء هو الاشتراكية العلمية ؟

وماذا يبقى إذن من هذه الاشتراكية العلمية ، أو الماركسية ؟

إنها مشكلة وأزمة حقيقية ! ولكنها مشكلة الماركسية وأزمتها وليست مشكلة الدين ، بأى حال من الأحوال .

ولذلك نقول : ان ارتداد ماركس الإلحاد يعنى ارتداده عن الماركسية ، إنه يعنى انهيار هذا البناء الذى أقيم لينهدم ، انهيار الماركسية ذاتها .

ذلك أن الإلحاد عند «ماركس» لم يكن يمثل جزءا - وإن كان أساسيا - يمكن أن ينتزع من المذهب ويبقى ببقية الأجزاء ، ولكن كان أساس البناء ولحمة المنهج وسداه .

ولقد عرفنا فى أول هذا الكتاب أن الماركسية تقوم على فكرة أن المادة أزلية لم يخلقها خالق ، ومن هذه الفكرة تتفرع كل الأفكار الماركيسة فى المنهج والوسائل كما اوضحنا ذلك فى القسم الثانى من هذا الكتاب عند الحديث عن الفروق بين الماركسية ، والدين .

فمعنى تنازل الماركسية عن الالحاد إذن ، يعنى تنازلها عن دبكتاتورية البروليتاريا ، وإلغاء الملكية الفردية ، لأن ذلك كله ينبع من المادية الجدلية ،

يقول الدكتور عبد الحميد متولى :-

«الواقع — كما يقول أحد المفكرين والباحثين الغربيين»
(أن الماركسية كلها يتضمنها فى الواقع النقد الموجه إلى الدين)

و (أن التيارين — تيار الإلحاد وتيار الاشتراكية — يمتزجان دواما لدى ماركس) .

ذلك أن الإلحاد بالنسبة للماركسية ليس أحد أجزائها أو نظرياتها ، وإنما هو جوهرها وعقيدتها . هو الأساس(١)

---

(١) دكتور عبد الحميد متولى . الإسلام ومبادىء نظام الحكم فى =

الفلسفي لبنيانها ، وهو الدم الذى يسرى فى جثمانها وكيانها ،

وقد يتساءل البعض ، بعد هذا الانهيار الكبير فى الماركسية، لماذا تبق حتى الآن ؟

وقد أورد الدكتور عبد الحميد متولى عن بعض المفكرين عدة أسباب(١) ترجع عند تأملها إلى : —

— أن هذا المذهب ينشر الأمل بأنه سيقيم الجنة على الأرض ويبشر بمستقبل حسن خاصة لدى الطبقات العاملة مما يجعل لديها الاستعداد دائما للثورة والتمسك بالنظام الماركسى .

— كما أن هذا المذهب أحل محل العقيدة الدينية .

— كما انه أيضا مشوب بالغموض ، فلا تعرف خفاياه لدى أشهر من أنصاره .

— ثم إن الماركسية - كما أشرنا من قبل - على استعداد للتلون والتراجع

ويضيف الدكتور متولى أن الظروف فى روسيا سنه ١٩١٧ هى التى ساعدت على وجود الماركسيه ، كنظام ، ولولا ذلك لكان مكانها الآن فى متاحف التاريخ(٢)

= الماركسية والديمقراطيات الغربية ص ٣٥٣ والنصان اللذان أوردهما عن كتاب « الماركسية والانسانية » لمؤلفه بيير بيجو طبع باريس عام ١٩٦١ ص ١٤٦ ، ١٤٨ .

(١) المصدر السابق ص ٣٠٠ وما بعدها .

(٢) د . متولى . الإسلام ومبادىء نظام الحكم ص ٣٠٢

ونحن نؤيد الدكتور متولى فى هذا التبرير ، إذ أن ظروف روسيا سنة ١٩١٧ هى التى ساعدت على جعل الماركسية ، هى نظام المجتمع ، ولو لم تكن الماركسية موجودة لاتخذت الثورة الروسية لها نظاما آخر .

وقد أعلن « تروتسكى » — الذى كان يقف خلف « لينين » قبل انشقاقه عنه - ذلك صراحة يوم ٥ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٢٣ سنة ، أمام المؤتمر السابع للحزب الشيوعى الأوكرانى ، قال : -

« ليس هناك منقذ أعلى ، أو بطل أعلى ، وهذا صحيح :

« إننا نعلم — دون شك — بأن الطبقة العمالية وستنتصر بفضل قواها ، وتقول أحد أناشيدنا الوطنية « ليس هناك منقذ أعلى » أو « بطل أعلى »

ستنتصر الطبقة العاملة فى نهاية المطاف ، وكان بوسعها أن تنتصر ، حتى لو لم يظهر كارل ماركس إلى الوجود ، وحتى لو لم يكن هناك « أوليانوف — لينين » ، ولكان بمقدورها أن تصنع الأفكار التى تحتاجها والأساليب اللازمه لها .

ولكن من المؤكد أن هذا العمل كان سيحتاج إلى وقت أطول (١) » .

فقيادة « لينين » ، ووجـــود الفكرة الماركسية عجل بانتصار الثورة فقط . ولكنه لم ينشئها من البداية .

---

(١) عن جان جاك مارى فى مقدمته لكتاب « تاريخ الثورة الروسية » تأليف « ليون تروتسكى » نفسه . ص ١١٩ ج١ ترجمة : الهيثم الأيوبى وأكرم ديرى : المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

على أن قوة الأنظمة الماركسية، كروسيا والصين وبعض دول أوربا الشرقيه ليست راجعة إلى قوة مذهب ماركس وصلاحيته، فالثابت :-

١ — أن معظم هذه الأنظمة خرجت عن الماركسية فى تفسيراتها، خاصة النظام الروسى، إلى درجة أن أحد كبار علماء الاقتصاد (شومبيتين) قال :

« لقد كان بين المغزى الحقيقى لمذهب ماركس وبين التطبيق السوفييتى للمذهب، هوة تبلغ من السعة والكبر، تلك الهوة التى كانت تفصل بين ديانة المسيحيين الأوائل وبين العقيدة والشعائر التى كان يأخذ بها رجال الكنيسة فى القرون الوسطى »(١)

وكان الزعيم الماركسى « كاوتسكى » يرى خطأ الرأى الذى ينظر إلى الماركسية والشيوعية الروسية على أنهما متماثلتان»(٢)

— بل إن « لينين » نفسه اعترف بأن السياسة الاقتصادية الجديدة التى اتبعها هو سنة ١٩٢١ لم تكن من الاشتراكية(٣)

٢ — ثم ان قوة السلطة كبديل عن الفكرة تبدو واضحة فى هذه النظم، وطغيان السلطة وجبروتها وضعف المقاومة فى داخل تلك البلاد هو الذى يحتفظ لهذه النظم بالبقاء .

ولنا بعد ذلك أن نقف أمام الخلاف بين روسيا والصين لنحلله من وجهة نظر فلسفية :

---

(١) المصدر نفسه صـ ٣٠٥

(٢) المصدر نفسه نفس الصحيفة

(٣) المصدر نفسه نفس الصحيفة أيضا

إن هذا الخلاف عقائدى أكثر منه خلافا سياسيا تتهم الصين فيه السوفيت بأنهم ارتدوا عن الفكرة الماركسية ، وقد رأينا صدق هذا الاتهام، وعلى لسان بعض الزعماء الشيوعيين أنفسهم . فلماذا لاتطبق روسيا ماركسية ماركس نفسه ؟ ولماذا اضطر لينين أن يضع سياسة اقتصادية سنة ١٩٢١ من غير الماركسية ويجلب رءوس الأموال الأجنبية إلى روسيا مما جعل تروتسكى ينشق على الحزب الشيوعى .

ولماذا وزع لينين أراضى النبلاء على الفلاحين مع أن الماركسية تنص على تملك الدولة لكل وسائل الإنتاج ومنها الأرض الزراعية .

وأشياء أخرى كثيرة ارتد فيها السوفيت فعلا عن ماركسية ماركس إلى الماركسية اللينينية .

ألآن الماركسية فقدت دورها حين فقدت مبرراتها وصلاحيتها ؟ وهل يصلح مذهب كهذا لقيام نظام دائم متماسك دون اعتماد على بطش السلطة ؟ وإلى متى يصبر الناس على بطش السلطة ؟

إن هناك حدودا لقدرة التحمل لدى النفس الانسانية لأى شعب .

ثم عن الصين — على قلة مايصدر عنها من أنباء ومصادر — : -

لماذا تغير دستورها ولما يمض عليه أربع سنوات فقط. إن مؤتمر الحزب الشيوعى الذى انعقد فى الأسبوع الأخير من شهر أغسطس هذا العام (١٩٧٧) قد أحدث بعض التعديلات فى الدستور الذى صدر منذ أربع سنوات. وربما تكشف الأنباء والأيام عن أبعاد هذا التعديل وأهدافه . كأنما التعديلات المتوالية من حظ النظم التى تنتسب إلى الماركسية دائما .

إن هناك ماركسية ماركسية فعلا ، وماركسية لينينية ، وماركسية ماوية وماركسية تيتوتية . وقد جنحت بعض النظم العربية إلى الماركسية فوجدت أيضا ماركسية عربية .

وكل هذه الماركسيات تعديلات ، ولكل منها منهج وتفسير ، وتختلف المناهج والتفسيرات وتتضارب فيما بينها إلى درجة يلغى بعضها بعضاً ، ومع ذلك تتسمى جميعاً بالماركسية ، وقد يقطع العقل المتأمل فى هذه الخلافات بأن الماركسية لا وجود لها ، أو على الأقل أصبحت الماركسية (ماركسية ماركس) شبحا موهوما وسط الظلام يتنادون جميعاً باسمه ، ويخبط بعضهم بعضاً من أجله ، يظن كل منهم أنه سيمسك الشبح ، ولا شبح هناك .

كل يغنى على ليلاه ، متخذا ليلى من الناس ، أو ليلى من الخشب

انتصار الإسلام :

وإلى جانب ذلك كله من أسباب انهيار الماركسية ، فإن هناك أسباباً موضوعية بدأت تتأكد فى مستقبل المواجهة بين الماركسية والإسلام، تبشر بمستقبل انتصار الإسلام فى هذه المواجهة .

أهم هذه الأسباب :-

١ ـ أن الأمة الإسلامية بدأت تعرف بوضوح دخائل وخفايا الفكرة الماركسية ، وضآلة قيمتها الحقيقية فى التطوير الاجتماعى .

٢ ـ كما بدأت القوى الإسلامية تدرك بالتجربة أطماع الشيوعية الدولية فى العالم النامى ، وفى العالم الاسلامى بوجه خاص ، وبذلك فقدت الماركسية ذلك البريق الخادع الذى كان يظهرها فى عيون الشعوب النامية بأنها الطريق إلى الخلاص والتحرر والرخاء ،فإذا بها ـ بعد سقوط الأقنعة ـ أشد خطراً من كل ألوان الاستعمار والسيطرة والتحكم ، واستغلال مقدرات الشعوب.

٣ ـ ولهذا السبب وأسباب أخرى فإن أغلب القوى الاسلامية بدأت تتجه إلى بناء مستقبلها ، وتخطيط حياتها ، على أساس إرادتها المستقلة ،

واختيارها الذاتى ، غير خاضعة للنفوذ الاستعمارى العلمانى ، أو الشيوعى الملحد . ومن ثم بدأت الأمة كلها تعيش بوادر نهضة تستعيد فيها وعيها بذاتها وبما تملكه .

٤ — أن هذه الأمة تملك المؤهلات الكاملة للنهضة الحقيقية : ـ

— فالمسلمون الآن يملكون مفاتيح الثروة فى عالمنا المعاصر ، ولديهم من الطاقات ما يجعلهم فى مقدمة الأمم ، لو أنهم أحسنوا الاستفادة منها وتوجيهها لمصلحتهم .

— ثم هم يملكون مع الثروة والطاقات المادية ، تراثاً روحياً ضخماً ، حافلا بالمبادىء الإيجابية الكفيلة بتحقيق التقدم الصحيح .

— وأهم من ذلك كله ، فإن لدى عامة المسلمين الآن الرغبة فى تحقيق النهضة والاتجاه إليها ، واختصار الزمن من أجلها .

وقد يكون من مؤشرات هذه الرغبة لدى الشعوب الإسلامية أنها بدأت تضغط بإلحاح وتصميم ، فى أكثر من بلد إسلامى ، على إصدار قوانين الشريعة الإسلامية ، التى تعنى العودة إلى الذات .

ولا يبقى لتحقيق هذه النهضة إلا : ـ

— أن يفيق الغافلون إلى وعيهم ، فيستردوا أنفسهم وعقولهم ـ التى نحسن بها الظن — من غمار الثقافات الدخيلة التى أثرت عليهم ، فجعلتهم لا يرون الاسلام رؤية واضحة .

— أن يحزم المترددون أمرهم ، حكاما كانوا أو محكومين ، فإن اللحظات التى تعيشها هذه الأمة ، على مفترق طرق ، هى لحظات جليلة وخطرة ، تحتاج إلى رجال قرار ، ذوى قلوب كبيرة ، وعقول نفاذة ، وسيحفظ الله لهم هذه الوقفة يوم يلقونه ، كما يحفظها لهم التاريخ .

— أما الذين يبيعون ضمائرهم ، وهم على علـم بما يفعلون ، فهم المساكين حقاً ، لا يرون ولا يسمعون ، ولا يدركون أبعاد المستقبل من وقائع الحاضر . « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لايسمعون بها »(١) . إنهم مساكين لأن القافلة ستجتازهم ، وستذهب أعمالهم « هباء منثوراً » .

« وعلى الأمة أولا وأخيراً ، أن تتابع صحوتها ، واثقة بدين الله ، واثقة بنصره وأن الله منجز وعده . « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وكفى بالله شهيداً(١) » .

(١) سورة الفتح الآية ٢٨

أهم المراجع

١ ــ الباقلانى (أبو بكر) : إعجاز القرآن تحقيق : ســـيد صقر . ط ٣ . دار المعارف بمصر .

٢ ــ البدرى (عبد العزيز) : حكم الإسلام فى الاشتراكية . المكتبة العلمية المدينة المنورة .

٣ ــ البهى (الدكتور محمد) :ـ الإسلام فى الواقع الإيديولوجى المعاصر . ط ١ سنة ١٩٧٠ . دار الفكر بيروت .

ــ الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى . ط ٥ سنة ١٩٧٠ . دار الفكر بيروت .

ــ نحو القرآن . ط ١ ســـنة ١٩٧٦ م . مكتبة وهبة . القاهرة .

٤ ــ تروتسكى (ليون) : تاريخ الثورة الروسية . ترجمة الهيثم الأيوبى ، وأكرم ديرى ط ١ سنة ١٩٧١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت .

٥ ــ التفتازانى (سعد الدين) : المقاصد .

٦ ــ جارودى (روجيه) : ماركسية القرن العشرين .

٧ ــ حليق (الدكتور عمر) : دور الماركسية فى الاشتراكيات العربية . ط ١ سنة ١٩٦٥ ، دار لبنان الجديد . بيروت .

٨ ــ خان (وحيد الدين) : ـ الإسلام يتحدى . ترجمة : ظفر الإسلام

خان . ط ١ سنه ١٩٧٠ دار البحوث العلمية .
الكويت .

— الدين فى مواجهة العلم . نفس المترجم مراجعة عبد الحليم عويس ط ٣ سنة ١٩٧٣ المختار الإسلامى . القاهرة

٩ — خفاجى (عبد الحليم) : حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون . دار القلم بالكويت ، ودار الأنصار بالقاهرة .

١٠ — دراز (الدكتور محمد عبد الله) : الدين . ط ٢ . ١٩٧٠ . دار القلم الكويت .

١١ — راسل (برتراند) وآخرون : الماركسية فى أبعادها المختلفة . دار الكاتب العربى . بيروت .

١٢ — رودنسون (مكسيم) : الماركسية والعالم الإسلامى . ترجمة : كميل داغر . دار الحقيقة بيروت .

١٣ — سارتر (جان بول) : المادية والثورة . ط٢ سنة ١٩٦٦ . دار الآداب . بيروت .

١٤ — ستالين : أسس اللينينية . الشركة اللبنانية للكتاب .

١٥ — شاكر (محمود) : المسلمون تحت السيطرة الشيوعية . المكتب الإسلامى ودمشق .

١٦ — شيخ إدريس (الدكتور جعفر) : الأسس الفلسفية للمذهب المادى .

١٧ — الصدر (محمد باقر) : — فلسفتنا . ط ١

— اقتصادنا . ط ١ . مطبعة النعمان . النجف

١٨ — الطبرى (على بن ربن) : الدين والدولة فى إثبات نبوة النبى محمد صلى

الله عليه وسلم. ساعده فيه الخليفة العباسى
المتوكل . حققه وقدم له : عادل نويهض .
دار الآفاق الجديدة بيروت .

١٩ - الطويل (الدكتور توفيق) : قصة النزاع بين الدين والفلسفة . ط ٢
مكتبة مصر . الفجالة : القاهرة

٢٠ - عبد الله (تحرير الحسانى) : أفيون الشعوب : المكتبة العصرية .
بيروت .

٢١ - العقاد (عباس محمود) :- الشيوعية والإنسانية فى شريعة الإسلام :
- الإسلام والحضارة الانسانية : المكتبة العصرية
بيروت : صيدا لبنان عقائد المفكرين فى القرن
العشرين . المكتبة العصرية : بيروت .

٢٢ - عمارة (محمد) : المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد . دار المعارف
بمصر .

٢٣ - الغادرى (نهاد) : حقائق الشيوعية . ط ١ . سنة ١٩٦٩ .

٢٤ - الغزالى (محمد) : الإسلام فى وجه الزحف الأحمر ط ١٩٦٦ :
المكتبة العصرية . بيروت .

٢٥ - فكار (الدكتور رشدى) : فى الماركسية والدين. ط ١٩٧٧ توزيع
مكتبة المعارف : الرباط . ومكتبة وهبة : القاهرة

٢٦ - القرضاوى (الدكتور يوسف) - مشكلة الفقر وكيف عالجها الاسلام.
دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع : بيروت .
- الإيمان والحياة : ط ١ سنة ١٩٦٩ .
الدار السعودية للنشر .

٢٧ — قطب (محمد) :- الإنسان بين المادية والإسلام . ط ٤. سنة ١٩٦٥
— شبهات حول الإسلام ط ١٩٥٤م مكتبة وهبة :

٢٨ — كامنكان (أوجين) : الأسس الأخلاقية للماركسية . ترجمة : مجاهد عبدالمنعم مجاهد. ط ١. سنة ١٩٧١. دار الآداب . بيروت :

٢٩ — كرم (يوسف) : تاريخ الفلسفة الحديثة ط ١٩٦٢ دار المعارف بمصر .

٣٠ — كريسون (أندريه) : تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث: ترجمة : نهاد رضا. منشورات عويدات . بيروت

٣١ — ماركس (كارل ماركس) : رأس المال . ترجمة راشد البراوى ط ٢ سنة ١٩٧٠ مكتبة النهضة المصرية القاهرة
— البيان الشيوعي بالاشتراك مع «فردريك إنجلز» منشورات الشركة اللبنانية للكتاب

٣٢ — متولى (الدكتور عبد الحميد) : الإسلام ومبادىء نظام الحكم فى الماركسية والديمقراطيات الغربية : منشأة المعارف بالاسكندرية . مصر .

٣٣ — النمر (الدكتور عبد المنعم) . إسلام لاشيوعية . مكتبة غريب بالفجالة . القاهرة

٣٤ — الهمذانى (القاضى عبد الجبار المتوفى سنه ٤١٥ ﻫ) تثبيت دلائل النبوة ج ١ حققه وقدم له : د : عبد الكريم عثمان : دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت :

٣٥ هويدي (دكتور حسن) الوجود الحق : المكتب الإسلامي دمشق.

الفهرس

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر بالقاهرة